وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة يحيى فارس بالمدية

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم التـــــاريخ

# العلاقات الجزائرية المغربية في عهد البيلربايات القرن 16م – 11هـ

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث

تخصص: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية.

إعداد الطالبين:

– خليفة يحياوي

– العيدبن يحيى

إشراف:

– د.عبد الرزاق تومیات

السنة الجامعية: 2018 - 2019

# الشكر:

نتوجه بالشكر إلى الله عز وجل ثم إلى الوالدين العزيزين والعائلة الكريمة، ثم إلى كل من قدم لنا يد المساعدة من قريب بعيد من أجل إعداد هذا العمل، كما نتوجه بالشكر إلى الأستاذ قريتلي والأستاذة رحماني على تقديمهم يد المساعدة.

كما نتوجه بالشكر إلى أعضاء اللجنة الذين سيتولون مناقشة هذه المذكرة وتحملهم عبء قراءتها، وأخص بالذكر الدكتور المشرف (توميات)، الذي لم يدخر جهدا في متابعة مسار هذا العمل من البداية إلى النهاية، وجزاه الله كل خير.



# الإهداء:

إهداء يحياوي خليفة:

أهدي هذا العمل المتواضع إلى مثل الأبوة الأعلى والدي العزيز يحياوي الطاهر، وإلى رمز الحنان أمي الغالية بن ناجي تركية، وإلى من شاركني حضن الأم إخوتي الأعزاء، والكتكوتة **ردينة**، وإلى أسرتي وأقاربي وكل الأصدقاء والأحبة.



# الإهداء:

إهداء بن يحيى العيد:

أهدي هذا العمل المتواضع إلى مثل الأبوة الأعلى والدي العزيز بن يحيى قويدر، وإلى رمز الحنان أمي الغالية بوعزيز الزهرة، وإلى من شاركني حضن الأم إخوتي الأعزاء، وإلى أسرتي وأقاربي وكل الأصدقاء والأحبة.



## لجنة المناقشة:

**رئيسة اللجنة:** د. حمصي لطيفة

**المناقش:** د. عبد الرحمان نواصر

**المشرف:** د.عبد الرزاق تومیات

## قائمة الإختصارات الواردة:

| الرمز | الدلالة |
|---|---|
| مج | المجلد |
| تح | تحقيق |
| تع | تعليق |
| تر | ترجمة |
| تق | تقديم |

## مقدمة:

إن موضوع العلاقات فهو موضوع هام في التاريخ لأنه يمثل العنصر الأكثر حركية فيه، وقد كان بحث العلاقات في التاريخ يقتصر غالبا على دراسة العلاقات السياسية بين الدول، وهذا ناجم عن الاهتمام بالتاريخ السياسي دون أنواع التاريخ الأخرى، ولكن خروج الدراسة التاريخية إلى حيز حياة المجتمعات دفع الدراسة إلى أن تأخذ مجرى آخر في ميدان الاقتصاد وجميع نواحي الحياة الاجتماعية.

ومنه يمكن القول أن المغرب العربي يتميز بالمقومات المشتركة والتاريخ الواحد، فالعلاقات الجزائرية المغربية قائمة ومتجذرة منذ زمان، فقد مرت على البلدين عدة دول أهمها االدولتان الزيانية والمرينية، ومع حلول القرن السادس عشر للميلاد، انتهت هذه الدول وانظمت الجزائر إلى الدولة العثمانية وظهرت الدول الوطاسية والسعدية في المغرب، لتظهر علاقات متوترة ومتنوعة بن الطرفين، ولهذا فدراسة العلاقات بين الجزائر والمغرب لن تقتصر فقط على العلاقات السياسية ، التي عرفت أحداثاً كثيرة في عهد البيلربايات وإنما تشمل أيضا العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية.

نظرا لأهمية وحساسية العلاقات الجزائرية المغربية، فقد رأينا أنه من الضروري تسليط اهتمامنا على هذا الموضوع، رغم الصعوبات وتطرقنا إليه في مذكرة تحت عنوان "**العلاقات الجزائرية المغربية في عهد البيلربايات**".

الإطار الزمني للبحث يمتد ما بين: 16م – 11 هـ، أما الإطار المكاني فهو المغرب العربي.

يتمحور موضوع الدراسة على اشكالية:

– كيف كانت العلاقات الجزائرية المغربية في عهد البيلربايات؟

ما مظاهر العلاقات بين الطرفين؟ ما هي أبرز جوانبها؟

اعتمدنا في موضوعنا على خطة اشتملت على ثلاثة مباحث زائد فصل تمهيدي.

–أما الفصل التمهيدي هو عبارة عن دراسة شاملة وملخص للموضوع؛

– في المبحث الأول والذي تناول: أوضاع المغرب والجزائر قبل عهد البيلربايات، قدمنا فيه نظرة تاريخية عن الأوضاع في المغربين من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية.

– أما المبحث الثاني فقد تطرقنا فيه إلى العلاقات السياسية والاقتصادية، فقد قسمنا العلاقات السياسية إلى مطلبين، الأول يخص العلاقات السياسية مع الوطاسيين والثاني يخص العلاقات مع السعديين.

– وفي المبحث الثالث أثرنا فيه إلى العلاقات الاجتماعية والثقافية، فتعتبر علاقات مباشرة، أما الدينية فقمنا بمقارنة بين حركة التصوف في الجزائر والمغرب في تلك الفترة.

وتوصلنا في الخاتمة إلى العديد من النقاط، إضافة إلى الملاحق وقائمة مفصلة تشمل المصادر والمراجع.

أما الدراسات السابقة فتعتبر العلاقات بين الجزائر والمغرب موضوع هام بحيث تطرق إليه الكثير من الدراسات، أهمها مذكرة العلاقات بين الجزائر والمغرب للأستاذ عمار بن خروف، التي استفدنا منها كثيرا في عملنا هذا.

واتبعنا في هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي، من أجل تتبع الوقائع التاريخية ومن أجل الوصول إلى الغاية.

أهم المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها هي:

- وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان، ولد في غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر، ويعتبر مصدر مهم من الناحية التاريخية والجغرافية في ذكر أحداث إفريقيا والمغرب العربي، ويعتبر مصدر أساسي في بحوث تاريخ المغرب؛

- التاريخ الديبلوماسي للمغرب، لعبد الهادي التازي في عشر مجلدات، وقد اقتصرت على المجلد السابع والثامن، الذي يتحدث عن العلاقات الوطاسية والسعدية مع الجزائر؛

- تاريخ الجزائر الثقافي، لأبو القاسم سعد الله،ويعتبر مرجه مهم يمكن الاعتماد عليه خاصة في مجال العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب.

- أهم الصعوبات التي اعترضتنا وكانت عائقا، هي نقص بعض المصادر والمراجع والبعض الآخر من الصعب الحصول عليها، وكذلك ضيق المدة الزمنية، نظرا لصعوبة الموضوع وقلة الأبحاث عنه.

كما أن الموضوع لم يكن اختيارنا.

وفي الأخير نضع هذا العمل المتواضع بين أيديكم فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان، وأملنا أن نستفيد من أخطائنا وتوجيهات أساتذتنا الأفاضل أثناء المناقشة والسلام عليكم.

## فصل تمهيدي:

الوضع السياسي في الجزائر والمغرب:

مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ميلادي، عرفت دول المغرب الجزائر ومراكش فوضى سياسية واضطرابات نتيجة التفكك وانحلال السلطة السياسية وغياب سلطة قوية تفرض نفوذها وهيبتها، فأصبحت المنطقة مسرحا للفوضى والتطاحن[1].

وتعتبر فترة بداية القرن 16م، بالنسبة للتاريخ المغاربي قرنا محوريا، إذ شهد تحولا كبيرا جدا على جميع المستويات، حيث عرف عدة مجابهات حربية بين أطراف مختلفة، فهو لا شك قرن التحولات الكبرى في الأنظمة السياسية والاتصالات المباشرة والبعثات التي حصلت بينن أطرافه عبر البحر المتوسط[2].

وفهمنا للأوضاع السياسية السائدة في تلك الفترة لا يتم إلا بعد تحليل الأبعاد المتعددة للموضوع، فهناك مثلا تداخل بين الدين والسياسة، الدين والاقتصاد، الدين والمجتمع، نظرا لارتباطها الوثيق بالصراع الإسباني العثماني وهجرة الأندلسيون إلى بلاد المغرب[3]، خاصة وأن هذه الفترة شهدت

1- المدني أحمد توفيق ، حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 – 1792، ط2 منقحة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص68.

2- التميمي عبد الجليل ، دراسات في التاريخ العثماني خلال القرن 16م، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2009، ص 98.

3- أمحمد بن عبود، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب الأقصى خلال القرنين 16 و17م، المجلة التاريخية المغاربية، العدد (55 – 56)، تونس، 1989، ص 194.

تجدد الصراع بين الشرق والغرب، والذي أصبح فيما بعد نزاعا بين المسيحية والإسلام، برز بشكل واضح بعد حروب الاسترداد التي تمكن الإسبان على إثرها من القضاء على الكيان الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة سنة 1492م[1]، وتمكنهم بذلك من القضاء على دولة الإسلام والمسلمين بالأندلس وصقلية[2].

هذا الصراع إمتدت آثاره إلى شمال إفريقيا[3]، حيث تعرضت السواحل إلى هجمات برتغالية وإسبانية متكررة إنتهت بالاحتلال العسكري للموانئ الرئيسية المغربية[4].

وقد أتيحت الفرصة للبرتغال في وقت مبكر عن الإسبان لاحتلال بعض الثغور الأطلسية للمغرب الأقصى مثل احتلال أغادير سنة 1505م، آسفى سنة 1507م، آزمور سنة 1513م، بحيث لم يبقى في أيدي المغاربة من الموانئ المهمة سوى سلا[5].

وكان النشاط البرتغالي قد تركز على الساحل الأطلسي مع بداية القرن 16م، خاصة بعد نشاط حركة الكشوفات الجغرافية على السواحل الغربية لإفريقيا[6]، أما الإسبان فقد وجهوا أنظارهم نحو الضفة الجنوبية من البحر المتوسط وشنوا حملات شرسة على الثغور المغاربية بقيادة دون ديغو ديفيرا Diego de vera ، وبيدرونافارو Pedro de navaro ، والتي أسفرت عن احتلال المرسى الكبير سنة

1- محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، ص 17.

2- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط8، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2008، ص 301.

3- عامر وآخرون، تاريخ المغرب الحديث (المغرب الأقصى ليبيا)، دمشق، ص 41.

4- الزبيري، مرجع سابق، ص 17.

5- علي عامر وآخرون، مرجع سابق، ص 22.

6- الزبيري، مرجع سابق، ص 15.

1505م، بجاية سنة 1510م، شرشال سنة 1511م[1]، فمع مطلع القرن 16م، كان البرتغاليون والإسبان قد احتلوا العديد من المدن والمراسي الساحلية من المغرب والجزائر[2]، ونتج عن هذه الأحداث المتلاحقة طرد آلاف المسلمين من الأندلس وشردوا إلى مختلف الثغور المغاربية وهلاك مئات أخرى خلال السفر نظرا لما اقترن بالنفي من المحن والآلام[3].

وفي هذه الظروف العصيبة كان المغاربة عاجزون عن صد العدوانين الإسباني والبرتغالي لأسباب عديدة أهمها: ظاهرة الصراع الدائم بين القوى السياسية المنقسمة على نفسها وبين القوى المحلية ذات الطابع القبلي أو الديني، التي عمقت ظاهرة الانحطاط والفوضى السياسية نظرا لغياب دولة مركزية موحدة وقوية معترف بها، سواء في الجزائر أو في المغرب الأقصى، وغياب شبه كلي للدفاع عن السواحل التي أصبحت مفتوحة لكل المغامرين[4].

عاش المغرب خلال هذه الفترة حالة من الغموض انتهت سنة 1529 م بالنسبة للجزائر، وسنة 1574 بالنسبة للمغرب الأقصى، فقد انتقل الحكم في هذه السنة إلى محمد الموكل التي تعتبر مرحلة حكمه تمهيدا لعصر منصور الذهبي الذي زود المغرب الأقصى بنظام اداري محكم[5].

أما بالنسبة للجزائر قد تمكن خير الدين من افتكاك حصن البنيون من يد الاسبان سنة 1529 بعد فشل أحمد بن القاضي في تحريره[1]، وكان قد استعمله الاسبان كمركز لقيادتهم البحرية

1- عامر وآخرون، مرجع سابق، ص 82.

2- الزبيري، مرجع سابق، ص 15.

3- محمد عبد الله عنان، سقوط الأندلس وآخر مسلميها، مجلة الأصالة، العدد 27، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975، ص 110.

4- التميمي، مرجع سابق، ص 99.

5- الزبيري، مرجع سابق، ص 18.

يهددون به مدينة الجزائر ويراقبون منه حركة المسلمين في كل الثغور[2]، ويتحكمون في مدخل ومخرج المدينة وتسببوا في شل الأعمال بحرية بها[3].

وكان الأخوان عروج وخير الدين بربروس قد جاءا من مدينة تونس واتخذا من جيجل قاعدة لنشاطهما، وبعد أن تمكنا من تحرير بجاية، بعث إليهما أهل مدينة الجزائر يشكون النصارى ويطلبون نجدتهما بعد أن ذاع صيتهما في الجهاد[4]، لتصبح بذلك مدينة جيجل نقطة ارتكاز لقوات خير الدين للهجوم على الاستحكامات العسكرية الاسبانية بمدينتي بجاية والجزائر خاصة وان خير الدين قد تلقى دعما كبيرا من السلطان العثماني قدر بحوالي 14 سفينة وأكثر من 100 مجدف وكمية معتبر من الأسلحة[5].

وكانت مدينة الجزائر قد استقل بها الثعالبة وعينوا سالم التومي ملكا عليهم والذي أبدى ولائه للإسبان وتعهد للملك الاسباني فيرناندو يدفع غرامة سنوية والسماح لبيدرونافارو بإنشاء حصن البنيون فوق احدى مدن الجزائر على بعد 300 متر من باب البحر ومن هذا الحصن ظل الإسبان يهددون مدينة الجزائر[6].

---

1الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، ص 50.

2- عامر وآخرون، مرجع سابق، ص 83.

3- إلتر، مصدر سابق، ص 50.

4- ابن رقبة التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الفكرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2603، ص 2 – 3.

5- خليفة حماش، العلاقة بين الجزائر والباب العالي، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، كلية الأدب، مصر، 1988، ص 26.

6- عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ص 163.

فرفض السكان ذلك واستنجدوا بعروج فأرسلوا له رسالة يلتمسون فيها مساعدتهم وتخليصهم من الاسبان وكبوا له عهدا بالسماح له بالإقامة في مدينة الجزائر[1]، وفرض سيطرته على المدينة سنة 1516[2]، بعد ان ألحق هزيمة كبيرة بالإسبان[3]، وبعد ما تم له فتح الجزائر بعث إليه السلطان العثماني من أجل تولي حكم الجزائر وبلادها[4]، اعدها تعرضت الجزائر إلى حملتين من قبل الإسبان، مع بداية شهر ماي سنة 1529م، بدأ خير الدين بالهجوم على حصن البينيون قصد تحريره ونصب مدفعين مقابلين للجزر وقصف الحصن بعنف لمدة 20 يوم دون انقطاع وألحق أضرارا كبيرة به، وفي يوم الجمعة 27 ماي تمكن من إحداث فتحة ملائمة بالحصن، وبدأ الهجوم من جميع الجهات مرة واحدة وبـ 45 سفينة مملوءة بالمحاربين، وبعد صراع دام يوم واحد، تمكن من السيطرة على الحصن، ثم قام بتوسيعه عن طرق إنشاء رصيف يربط بين الجزر الصغيرة والمدينة مشكلا حوضا للسفن.

1- إلتر، مصدر سابق، ص 50.

2- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 166.

3- محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980، ص 74.

4- محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج1 +2، ط2، دار الحضارة للطباعة والتوزيع، 2007، ص 207.

يعتبر طرد الإسبان من حصن البنيون سنة 1529م، هو التاريخ الفعلي لتأسيس إيالة الجزائر، وبذلك أصبحت مدينة الجزائر قوة بحرية فاعلة في البحر المتوسط، والملجأ المفضل للقراصنة المغاربة، حيث برزت مدينة الجزائر كقوة بحرية فعالة نمت في وقت قصير وبرهنت بقوتها الكبيرة في الجانب القتالي، والتي ستواجه أي قوة معادية في البحر المتوسط[1].

وأصبحت الجزائر "المدينة الدولة"، حاملة لواء الجهاد في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فهي في الكتابات المحلية "المدينة المحروسة"[2]، أما الكتابات العربية فصورتها على أنها "عش القراصنة"، الذي ألقى الرعب في قلوب الضفة الأخرى للمتوسط[3].

ومن هذا المنطلق أصبحت مدينة الجزائر وبشكل سريع أحد الثوابت في استراتيجية التحرك العسكري والسياسي الجديد للدولة العثمانية في المغارب[4]، وربما يعود ذلك للاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي اللذان عرفتهما مدينة الجزائر منذ انتصاب الحكم العثماني في الربع الأول من القرن 16م، والذي شجع أعداد ضخمة من مهاجري الأندلس على الاستقرار بها، على اعتبار أن الأندلسيين شكلوا قوة بحرية جديدة في الفضاء الجيوسياسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، في محاولة لوضع حد للهيمنة الإسبانية والهجمات المتكررة الي كانوا يعتبرونها تهديدا لهم[5].

1- يامنة درياس، السكة الجزائرية في العهد العثماني، ط1، دار الحضارة للطباعة والتوزيع، 2007، ص 207.
2- علي بن محمد التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2000، ص 46.
3- أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 2757، ص 39.
4- عامر وآخرون، مرجع سابق، ص 96.
5- التميمي، مرجع سابق، ص 101.

كما حاول الأتراك العثمانيون ضم المغرب الأقصى إلى المدار العثماني، خاصة وأن السياسية الوطاسية في النصف الأول من القرن 16، كانت قائمة على مهادنة البرتغاليين والإسبان بل تعد إلى تهميش العنصر الأندلسي الوافد إلى المغرب الأقصى وعدم استخدامه في المخزن، فتحول الأندلسيون إلى قوة معارضة خطيرة على قاعدة الإسبان الناقمة على الوطاسيين، واعتصموا في قصبة سلا بقيادة الدكالي، واتخذوها قاعدة للجهاد البحري[1].

يبدو أن الأتراك العثمانيين قد عرفوا كيف يستغلون الصراع الوطاسي السعدي على السلطة ليوطدوا نفوذهم بالمغرب الأقصى تمهيدا لضمه، وتبدو محاولة العثمانيين جلية سواء من خلال محاولة احتواء قراصنة سلا وإيفاد إمدادات إلى بعض الثغور المغربية، نقلا بعض الوثائق إلى وصول 23 سفينة بقيادة باشا الجزائر إلى الحسيمية سنة 1522م[2]، أو من خلال توجيه حملات عسكرية على فاس كحملة صالح رايس سنة 1554م، والهدف من هذا محاولة تثبيت الوجود العثماني في المنطقة، وبالرغم من فشل الحملة، إلا أنها أثارت مخاوف حكام الثغور الإسبانية من أي تحرك عثماني في المنطقة من شأنه أن يهدد المصالح البرتغالية الإسبانية على السواحل الأطلسية والمتوسطية، وحاولوا إجراء اتصال مع الشريف السعدي قصد تشجيعه لمواصلة الحرب ضد العثمانيين، وبعض السلاطين السعديين فضلوا التعاون مع الإسبان على الخضوع للأتراك العثمانيين[3]، واعتبروا أنفسهم أحقبالخلافة على المسلمين من الأتراك، وحسب الزياني فإن الأمر وصل بهم إلى تسليم بعض الثغور المغربية للإسبان، حيث أورد:

1- عامر وآخرون، مرجع سابق، ص 72.

2- أبو فارس عبد العزيز بن محمد المشتالي، مناهج الصفا في أخبار الملوك والشرفاء، تح عبد الله كنون، ج2، م المهية، تطوان، 1964، ص 109.

3- الجيلالي، مرجع سابق، ص 19.

"...واستولوا (يقصد الإسبان) على جحر بادس بالريف عام 964هـ، فهي في أيديهم إلى الآن، وسبب ذلك السلطان عبد الله الغالب السعدي، كما تولى الملك...ورأى مراكب الجزائر لا ينقطعون عن مرساها، تخوف منهم واتفق مع الطاغية أن يعطي له جحر بادس فينقطع بذلك مدد الأتراك ففعل ودخلوها..."[1].

عموما يمكن القول أن الأوضاع السياسية في المغرب والجزائر مع بداية القرن 16م، كانت الأوضاع متدهورة وكانت المنطقة تعيش نوع من الفراغ السياسي نتيجة غياب قوة في المنطقة تشكل قوة سياسية، هذا الوضع تسبب في تكالب الدول الأوربية على البلاد المغربية، وهو ما يوضحه الموانئ التي استعمرها البرتغال والإسبان ومع مجيء العثمانيين إلى الجزائر ووصول السعديين للحكم، تحسنت الأوضاع رغم تواصل الصراع بين الدولتين.

***الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي:**

شهدت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في البلدين نفس الأوضاع السابقة لهذه الفترة أي القرن 14 ومطلع القرن 15م، ويتجلى ذلك من خلال:

انتظمت العلاقات التجارية بين دول المغرب التي مثلت العالم الإسلامي مع العالم المسيحي فكانت المغرب والجزائر نقطة عبور للسلع والمنتجات القادمة من الشرق وجنوب الصحراء، وكان للسفن الأوربية حرية الدخول للموانئ الرئيسية على طول الشريط الساحلي، خاصة الموانئ الجزائرية، وكان لها

1- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح المهدي البو عبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 145.

عدة امتيازات وتسهيلات وقد نوعت وتعددت المواد التي كانت تصدر وتستورد بين هذه الأقطار، ولقد أثرت أوضاع المغرب الأقصى اقتصاديا بسبب الحروب الداخلية التي هددت سواحله ونتيجة الفتن والاضطرابات أصبح من الصعب وجود طرق آمنة خاصة المناطق الداخلية وأصبحت التجارة حكرا على السواحل خاصة مدينة سلا[1].

كما تميزت مراكش والتي تعتبر مدينة مغربية تقع في وسط المملكة المغربية وهي من أشهر الوجهات السياحية في المغرب مما أكسبها لقب المدينة الحمراء، والجزائر بنشاطها الحرفي والفلاحي وهذا امتداد للعصور القديمة نتيجة لموقعها الاستراتيجي المتميز فاشتهروا بالعديد من الحرف والصناعات التي كانت موجهة لخدمة المجتمع، فأحصى حسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، فذكر عن مدينة الجزائر "...لكل حرفة مكانها الخاص..."، وهذا دليل على تنظيمها المحكم وتنوعت الصناعات مثل صناعة السفن والحرير[2].

ومنأهم المدن الصناعية في المغرب الأقصى مدينة فاس وعرفت الصناعات النسيجية، الغذائية، النسيجية، صناعة الملابس، الدباغة، صناعة الأحذية والصناعة المعدنية[3].

أما من الناحية الاجتماعية، تميز المستوى المعيشي في الجزائر والمغرب بتفاوته من منطقة إلى أخرى، وبين البادية والمدينة، وقد اختلف المستوى المعيشي بين الأفراد سواء كانوا في المدن أو الأرياف باختلاف أنشطتهم سواء كانت صناعية، تجارية أو فلاحية[1].

1- ويليام سبسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تر عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، د ط، الجزائر العاصمة، 2006، ص 23.
2- الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 19.
3- محمد بن محمد بن مصطفى المشرقي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، تح إدريس بوهليلة، ج --، ط1، دار أبي الرقاق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، 2005، ص 47.

بالنسبة للتركيبة الاجتماعية عرف دول المغرب كغيرها من المجمعات، فالمجتمع المغاربي انقسم ضمن ترتيب هرمي أساسه الطبقات السفلى التي تشكل الغالبية العظمى التي تشكل الغالبية العظمى، وأعلاه الطبقة المرفهة (الغنية والميسورة) والتي لها صيت وجاه، فنجد بأعلى الطبقات طبقة الحكام والأمراء وعائلاتهم، ثم تليهم طبقة العلماء والصلحاء، وفيها يدخل شيوخ الإفتاء والقضاة وأصحاب الثراء من ذوي النفوذ، أما في الطبقة التي تليها، فنجد التجار والحرفيين من ذوي الدخل المحدود، سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم من الذميين، أما عن الطبقات السفلى فهي مكونة من الفقراء من العامة وأدنى منهم منزلة العبيد والأسرى، بصفة عامة هذا ينطبق على المدن والحواضر، أما في الأرياف والبوادي، فهذا التقسيم مغاير نوعا ما، فالسائد هو النظام القبلي أعلى هرم في السلطة شيخ القبيلة، من حوله أسرته وأحيانا شيخ الزاوية يكون شيخ قبيلة[2].

أما فيما يخص الجانب الثقافي نتيجة الحروب وتدهور الأوضاع السياسية عرفت المنطقة هجرة للعلماء ومنهم من تفرغ إلى العزلة والتصوف، وبالرغم من ذلك شهدت المدن والحواضر فعرفت بعض المدن إشعاع ثقافي فنجد فاس التي كان بها جامع القرويين الذي كان مقصد العلماء وبالجزائر نجد بجاية وقسنطينة التي كان بها مدارس ومساجد لتعليم علوم الدين كما تنوعت العلوم بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية[3].

1- الوزان ، مصدر سابق، ج1، ص 59.

2- الوزان ، مصدر سابق، ج1، ص 59.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500 – 1830، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ص 22.

***العلاقات السياسية والاقتصادية بين البلدين:**

منذ ظهور الدولتان، ونخص بالذكر الزيانية والمرينية، عرفت الجزائر والمغرب علاقات في المجال السياسي والاقتصادي، لكن مع مطلع القرن 16م، تراجعت هذه العلاقات وتحولت إلى ركود ومع سقوط مملكة تلمسان تحددت الروابط بين حكام المغرب والجزائر في إطار الجهاد وحملات الاسترداد، فالعثمانيون في الجزائر كانت لهم علاقات طيبة مع الوطاسيين، ثم تحولت هذه العلاقات من علاقة سلمية إلى عدائية في العهد الأول للدولة السعدية.

أما في الجانب الاقتصادي، فقد استمرت العلاقات التجارية بدون عوائق إلا في بعض الاستثناءات، وخير دليل التعاون بين الجزائر ومدن شمال المغرب مثل تطوان وسلا، اللتان ساهمتا بقسط وافر في تعزيز التجارة البحرية من مدينة الجزائر وتلمسان هي الأخرى لها دور بارز في تعزيز التجارة البرية بين البلدين.

تميزت العلاقات الوطاسية الجزائرية بالصراع بين الطرفين، وبعد الهجومات الإسبانية البرتغالية على البلدين عملوا على الجهاد ومؤازرة بعضهم خاصة في عهد السلطان أبا عبد الله الوطاسي وقد حاول إرسال مركبين لإعانة المغرب الأوسط ضد الإسبان 920هـ - 1514م[1].

لما مات أبو حمو الثالث ترك اثنين من ولده محمد عبد الله الثاني 1518، وأبو سرحان المسعود 1519، فكان الحكم الأول فثار عليه أخوه أبو سرحان المسعود ودخل تلمسان بمساعدة خير الدين

1- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، ج7، دط، أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1988، ص 191.

ومساعدة الوطاسيين فأمدوه بالمال والسلاح، وقد سمح الوطاسيين للسفن الجزائرية بدخول تطوان للتزود بالمؤن، وهذا دليل على التعاون بين البلدين[1].

تميزت العلاقات بين السعديين والجزائر بمراحل عداء وأخرى أكثر سلمية، فاستولوا على تلمسان سنة 1550م، وحدثت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة السعديين ومقتل الشريف عبدالقادر ابن السلطان المغربي وحررت تلمسان.

عمل السلطان العثماني على تحسين الأوضاع بين السعديين والجزائر بإرسال فرمان مضمونه الاعتراف بالسلطان العثماني مقابل عدم التدخل في الشؤون الداخلية للمغرب[2].

عموما يمكن القول ان العلاقات كانت في العهد السعدي تأثرت بأطماع الشيخ السعدي التوسيعية على العلاقات الحسنة ووظف الأغراض الشخصية على حساب المشتركة بين الدولتين، فقد كانت نظرته للوجود العثماني في الجزائر نظرة عدائية واعتبرها احتلال وجب الوقوف ضده هذا من الناحية السياسية، أما اقتصاديا ان العلاقات التجارية بين الجزائر والمغرب الأقصى لم تكن متعددة مقارنة مع الدول الأوربية كون أن معظم التجارة كانت تتم عبر الموانئ لكن لا يمكن اهمال دور القوافل التجارية التي كانت تمر داخل البلدين[3].

1- المدني، مرجع سابق، ص 190.

2- ينظر الملحق رقم (05).

3- محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 104-105.

كان لتلمسان الدور الحيوي في التجارة بين المغرب والجزائر، ولا عجب أن أهل تلمسان أكثر ثراء فنجد أن هذه المدينة تمر بها عدة طرق كطريق الساحل الرابط بين المدن الداخلية، والطريق الرابط بمكناسة بالمغرب الأقصى ثم مازونة ثم مليانة ثم الجزائر ثم قسنطينة ثم عنابة[1].

المعاملات التجارية المغربية الجزائرية لم تتأثر بالأوضاع السياسية نظرا لطابع الحدود الغير رسمية بين البلدين.

تعتبر الصناعات والحرف من أكثر النشاطات الغالبة والأكثر ممارسة في العصر الحديث فنجد على سبيل المثال فن الزخرفة والنحت وقام الحرفيون بإنجاز العديد من التحف التي لا تزال مثلة حتى الآن[2].

***العلاقات الاجتماعية الثقافية:**

يوجد بين المغرب الأقصى والجزائر العديد من الروابط أبرزها الاجتماعية التي ساعدت على تخطي العديد من الخلافات السياسية ويبرز هذا من خلال:

الروابط العرقية: ان القطر المغاربي بصفة عامة والأوسط والأقصى بصفة خاصة عبارة عن مزيج من الأجناس المتصاهرة والمندمجة منذ القدم[3].

1- ينظر الملحق رقم (04).
2- الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 131.
3- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 46.

وتعتبر الهجرة والاستقرار من بين أبرز المظاهر والروابط التي ساهمت في تثمين العلاقات بين البلدين، كان أهالي الجزائر وتجارها وعلمائها يقصدون المغرب الأقصى لمزاولة أعمالهم وكأنهم في بلدهم الثاني وهو نفس الأمر ينطبق على المغاربة هذه المظاهر لم تقتصر على السكان بل تجاوزت ذلك وصولا إلى الحكام[1].

من مظاهر العلاقات الثقافية: احتل العلماء المغاربة منذ العهود الاسلامية الأولى مكانة مرموقة في المشرق والمغرب فميز وعن سائر العلماء وقدموا الكثير للعالم الاسلامي في شتى المجالات وقد استفادت الجزائر والمغرب من هذا التبادل وانعكس ذلك على الجانب الثقافي، فكان الانتاج العلمي في بلاد المغرب ثريا متنوعا شجع على تبادل المعارف، ومن بين علماء المغرب الذين وفدوا الى الجزائر نذكر محمد بن علي الحاج الشطيبي، عبد الله الوريجالي، عبد الله الخياط الزهروني، أحمد تاخرستان الراشدي... من العلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب لطلب العلم والتدريس، نذكر محمد بن عبد الرحمان بن جلال، بن محمد العقباني، محمد الخروبي السفاقسي، علي بن عيسى الراشدي التلمساني...[2]

من أهم الحواضر العلمية التي ساهمت في تخريج العديد من العلماء والفقهاء البارزين أمثال عبد الواحد الونشريسي في المغرب الأقصى نجد مدينة فاس، والتي تعتبر مدينة العلم، بها جامع القرويين الذي

1- عمار بن خروف، العلاقات بين المغرب والجزائر، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، تخصص تاريخ، كلية الأداب، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1983، ص 364.

2- محمد بن عسكر الحسني الشعشاوي، دوحة الناشر لمحاسن من مشايخ القرن العاشر، تح محمد حجي، ط2، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط – المغرب، 1997، ص 30.

أسهم في دفع الحركة الثقافية والفكرية، فقد كثرت فيها المدارس كمدرسة العطارين التي بناها أبو الحسن المريني 1346م[1].

ومن بين أهم الحواضر العلمية في الجزائر مدينة تلمسان، منذ عهد بني زيان اهتم السلاطين بالجانب العلمي، فقد نافست هذه المدينة مدينة فاس المغربية في استقطاب العلماء وبني بها العديد من المدارس والمساجد وتم استدعاء الكثير من العلماء لها مثل استدعاء أبو حمو الثاني لابن خلدون سنة 1368م[2]، وكان الجامع الأعظم بتلمسان منارة علمية مميزة تعاقبوا عليها مثل العلامة ابن مرزوق[3].

تعتبر الإجازات العلمية أمر مهم في الارتقاء في درجات الفقه في الدين، لا بد يجاز الطالب على يد عالم فقيه ملم بسائر المسائل ومن أهم المشايخ الذين تحصلوا على إجازات علمية نذكر الشيخ أبي العباس بن يوسف المليانى، من كبار مشايخ العلم والولاية، عبد الواحد بن أحمد بن يحي الونشريسي، المعروف بأبو العباس الونشريسي وهو الونشريسي مولدا ومبدءا، من علماء الجزائر في القرن 09هـ، عبد العزيز القسنطيني...[4]

من المناهج التي كانت تدرس بمدارس المغرب والجزائر العلوم النقلية والعقلية، فالعلوم النقلية هي علوم متخصصة بالمسلمين وهي مستمدة من الشرع من الكتاب والسنة، وتنقسم إلى فرعين علوم دينية شرعية وعلوم لسانية واجتماعية.

---

1- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 132

2- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 226.

3- سام كمال عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني (633 – 962هـ/1235 – 1555م)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير ، كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ، جامعة النجاح الوطني، نابلس – فلسطين، 2002، ص 225.

4- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 132 – 134.

العلوم العقلية وهي علوم غير مختصة بملة معينة وهي علوم طبيعية والعلوم الروحانية، وتدرس وفق منهج ووقت زمني محدد[1].

1- شقدان، مرجع سابق، ص 230 – 235.

# المبحث الأول:

# أوضاع الجزائر والمغرب

# مع مطلع القرن 16م.

## المطلب الأول: الوضع السياسي في الجزائر ومراكش.

كان المغرب العربي مع مطلع القرن السادس عشر، يمر بفترة من الانحطاط والضعف، نتيجة الفوضى السياسية.

هذا ما عجل بظهور التمزقات الداخلية في المغربين الأوسط والأقصى، ما مكن الاستعمار الإسباني والبرتغالي من استغلال هذه الظروف للتوسع في شمال إفريقيا، وزاد من حدة التوترات والصراعات وبث الفرقة والاختلاف بين الدول كالدولة الزيانية في الجزائر، وشجع الانقسامات مما سهل عليه احتلال الحصون الساحلية، من المحيط الأطلسي غربا وصولا إلى عنابة شرقا، وحال دون توحد الجهود.

أما في الغرب كان الصراع الداخلي على أشده وزادت حدته في فترة الضعف التي كان يمر بها الكيان الوطاسي فظهرت العديد من الإمارات التي إنظوت في ما بعد تحت لواء الدولة السعدية التي نادى زعيمها للجهاد، لكن استفاقة المسلمين جاءت متأخرة لا سيما بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.

كانت الجزائر معنية بحركة الجهاد ضد الإسبان والفضل يعود لجهود الأخوين بربروس عروج وخير الدين في تحرير الموانئ الجزائرية من قبضة الإسبان وتحويلها إلى قواعد للجهاد البحري.

هذا الوضع السياسي المتدهور كان له أثر على الجانب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

## 1-الظروف السياسية في الجزائر مطلع القرن السادس عشر ميلادي:

إن الأحداث التي عرفها العالم الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة جعلت الأوضاع متأزمة مع مطلع القرن السادس عشر ميلادي في جميع المجالات حيث كان لموقع المغرب الأوسط الجغرافي تأثيره الواضح في معالم الحياة السياسية كلها، وفي الإطار الجيوسياسي كثرت فيه الفتن بسبب التنازع على الحكم، فكان عهد إظطراب وتدهور حيث وصل هذا التأزم في الأوضاع إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر ميلادي[1].

إلى درجة لم يعد في وسع الزيانيين بتلمسان حماية المناطق الموالية لهم من الهجمات الإسبانية من جهة وهجمات الوطاسيين من جهة أخرى، حيث أصاب الزيانيين 1505 م الوهن لأن احتلال الإسبان للمرسى الكبير ووهران، دفع المدن الساحلية مثل دلس والجزائر وشرشال وتنس ومستغانم إلى تقديم ولائها إليهم، خوفا من مصير مماثل لمصير وهران، كما فعلت القبائل المجاورة للمواقع المحتلة[2]، مما خلق تلك الدولة وجودها من مواردها ودورها التجاري مع الممالك الأوربية، وأفقد سلاطينها مكانتهم في نظر رعاياهم، لا سيما عندما تنازعوا على البقية من الملك، ومالوا إلى الإستعانة بعضهم على بعض بالإسبان والأتراك العثمانيين، فصاروا ألعوبة بين هؤلاء وأولئك، هذا ما أزم أمور الدولة الزيانية في غرب وشرق الجزائر[3].

---

1- المدني، مرجع سابق، ص68.

2- محمد فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط1، دار العصر الحديث للنشر، بيروت، لبنان، 1992، ص16.

3- سعد الله، مرجع سابق، ص465.

فأدى إلى عجز الأمراء الحفصيين في بجاية وقسنطينة وتوني عن المواجهة والتحكم في زمام الأمور، إلى تفكيك كبير وبروز وحدات سياسية صغيرة هنا وهناك، تحت حكم إمارات قبلية ودينية في بلاد القبائل، وفي المناطق الداخلية التي تليها بين جهتي الشرق والجنوب، حيث كان الغزو الإسباني وفشل الحفصيين والزيانيين في التصدي له وميلهم إلى مهادنة المحتلين الإسبان من أسباب بروز القوى الدينية على المسرح الساسي لقيادة المقاومة ضد المحتلين، وسد الفراغ الذي أحدثه ضعف الحفصيين والزيانيين وتحالف تلك القوى مع طلائع العثمانيين الذين كانوا يجوبون الحوض الغربي للمتوسط ويتصلون بهم، وأدى ذلك إلى استقرارهم على الأراضي الجزائرية[1].

واستحكمت العلاقة بين الطرفين لمدة تزيد عن ثلاثة قرون، أنقذوا خلالها البلاد الجزائرية من الإحتلال الإسباني الكامل لها، وتمكنوا من إقامة حكم قوي في الجزائر طوال تلك الفترة، ولم تتوتر فيها تلك العلاقة إلا في العقد الأول من القرن التاسع عشر ميلادي[2].

وكنتيجة لتأزم الأوضاع السياسية في الجزائر مطلع القرن السادس عشر ميلادي بسبب الغزو الخارجي، والتفكك الداخلي، ما جعل الأمور تظطرب في كل أنحاء البلاد إلى حد كبير، وكان لكل ذلك أسوأ الأثر على مختلف الأنشطة الإقتصادية[3].

---

1- حسين مؤنس، تاريخ المغرب العربي وحضارته، المجلد2، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992، ص154.

2- محمود على عامر، محمد حيز فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 1999 – 2000م، ص31.

3- خير الدين بربروس، مذكرة خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، 2016، ص86.

كان حينها خير الدين بربروس منشغلا بتحرير مستغانم[1]، فلما دخلها أرسل معه ألف جندي إلى تلمسان، فدخلها وبايع السلطان العثماني وبقي على عهده إلى أن توفي فخلفه محمد السابع سنة 1524م، الذي إضطرب أمره بين الإسبان والأتراك إلى أن خلعه أخوه أبو زيان أحمد الثالث سنة 1542م، وأظهر إستعدادا للجهاد ضد الإسبان وبقيت تلمسان في حوزة الزيانيين حتى قام صالح ريس بخلع الملك، وضم المملكة إلى إيالة الجزائر سنة 1554م.

مع مطلع القرن السادس عشر ميلادي كان المغرب الأوسط مقسم بين العديد من الكيانات والزعامات، تحكمها العصبية والولاء للقبيلة التي فرضت وجودها على الساحة السياسية، فنجد في المنطقة الوسطى تحديدا مدينة الجزائر سلطنة كوكو التي يحكمها ابن القاضي التي يمتد نفوذها إلى القسم الغربي من جبال القبائل الكبرى، أما بعض الأجزاء الشرقية من المغرب الأوسط فقد كانت خاضعة لحكم الأمير عبد العزيز الحفصي[2]، الذي كان مقر حكمه قلعة بني عباس[3]، وإمارات أخرى تقسم الرقعة الوسطى ولا تدين في الغالب بالولاء لأحد.

1- ينظر ملحق رقم (02).

2- الوزان، مصدر سابق، ص38.

3- قلعة بني عباس قلعة مشهورة في بجاية، آخر حكامها من الملوك الحفصيين أبي العباس، وفي عهده سقطت بجاية في يد الإسبان سنة 1510م، ينظر كتاب يوسف بنوجيت قلعة بني عباس إبان القرن 16م، تر سامية سعيد عمار، تق محفوظ قداش، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، ص25.

## 2- إستنجاد الجزائر بالدولة العثمانية.

### أ/ العثمانيين والجهاد:

في الوقت الذي كانت الديار الإسلامية في المغرب العربي تعاني من الاحتلال الإسباني الذي سلب ونكل بالمسلمين وتمكن من إخضاع العديد من المدن والحصون الساحلية.

منذ سنة 1505م، إلى أن حل الإخوة بربروس بجزيرة جربة التونسية فكانت نقطة تحول كبيرة صنعت واقعا جديدا.

إن سبب مجيئ الأخوين إلى جربة بتونس إنما هو بدافع الجهاد، لذا يقول خير الدين في مذكراته "... أخذت بقية القطع فجبت البحر المتوسط طولا وعرضا إلى أن أتيت إلى جزيرة جربة، حيث لقيت أخي عروج هناك، وبينما نحن نفكر في وجهتنا إذ بدا لنا أن نتوجه إلى تونس وقلنا: "ما دام الموت هو نهاية كل حي، فليكن في سبيل الله..."[1].

إن أصل عائلة بربروس من جزيرة ميدلي[2]، حيث كان والد خير الدين يدعى يعقوب آغا أحد أبناء المستوطنين الجدد، تزوج يعقوب من إحدى النساء المحليات فأنجبت له إسحاق وعروج وخضر (خير الدين) وإلياس[3].

---

1- بربروسا، مصدر سابق، ص46.

2- ميدلي: جزيرة كانت واقعة تحت حكم الدولة العثمانية وتابعة لإيالة الجزائر بحر سعيد الواقعة في بحر إيجة، أما في عصرنا هذا فهي تابعة لدولة اليونان وتسمى سبوسن، ينظر سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مر: عبد الرزاق محمد حسن بركات، د ط، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، 2000م، ص84.

3- بربروسا، نفس المصدر، ص225.

إن الأخوين في بادئ الأمر كانوا يغزون في البحر فيغنمون من سفر النصارى غنائم كثيرة، ويأسرون من عليها ويتصدقون على فقراء أهل تونس ولما اعتدى الإسبان على ساحل بجاية طلب أهلها من الأخوين النجدة، واتفقوا على اللقاء تحت أسوار بجاية، فاجتمع مع مجاهدي زواوة ما يقارب ثلاثة آلاف وخرج عروج من حلق الوادي بخمس سفن، لكن الإسبان أرسلوا إلى حصن بجاية خمسة عشر سفينة إعترضت طريق عروج، وفي مناورة سريعة تمكن من إغراق بعضها والاستيلاء على بعضها، بينما فرت الأخرى ولم يكتفي بذلك بل نزل إلى البر ليحاصر القلعة، ولكن قذيفة نارية أصابت ذراعه فتسببت في بتره، لكنه في هذه المعركة لم يستطع فتح بجاية وعاد إلى تونس[1].

بعد فترة قصيرة أغار على مدينة جيجل فافتكها من يد الجنوبيين واتخذ منها قاعدة له[2].

في سنة 1514م، قاد عروج جيشا مؤلفا من عشرين ألفا من المجاهدين من الزواوة والأتراك، ولكنه لم يفلح واستفاد من دراسة نقاط ضعف قلاع بجاية[3]، ثم عاد إلى جيجل وفي سنة 1515م، أنزل جيشه بالسفن على سواحل بجاية وحاصرها وقصفها من عدة جهات قصفا شديدا، لكن الذخيرة نفذت منه وتقاعس السلطان الحفصي محمد بن الحسن عن مده بالذخيرة وكان من بين أسباب عودته إلى جيجل[4].

1- بسام العسلي، خير الدين بربروسا والجهاد البحري (1470 – 1547م)، ط1، دار النفاس، بيروت – لبنان، 1980، ص 166.

2- المدني، مرجع سابق، ص 166.

3- ينظر الملحق رقم (02).

4- نفسه، ص 169.

أما مدينة الجزائر فكان الأخوين يحضران للحملة الرابعة على بجاية، إذا بوفد من أعيانها جاء يطلب العون للتخلص من الحصار الذي فرضه الإسبان على المدينة من حصن الصخرة، فلبى عروج نداء أهل الجزائر وخرج بجند قدره 80 تركي على ظهر 11 سفينة ومعهم 1500 رجلا من مجاهدي الشرق، فلما بلغ المدينة إستقبل بحفاوة بالغة وكان ذلك سنة 1516م[1]، ومن الحوادث التي وقعت بالجزائر ، أن سالم التومي حاكم مدينة الجزائر إتصل سرا بالإسبان، فلما علم عروج الخيانة إغتاله[2].

أما ابن سالم التومي يحي التومي ، فقد انطلق إلى وهران بعد مقتل أبيه يطلب العون من الإسبان لكن الإسبان لم يكونوا ليقفوا موقف المتفرج من خضوع مدينة الجزائر لعروج، واتفقوا مع سلطان تنس وقواتهم المتمركزة والمتحصنة في البونيون واتباع سالم التومي على طرد عروج من الجزائر، فقد أعاد الكردينال خمينيس kheminisse في سبتمبر 1516م، عمارة عمارة بحرية قوامها 35 سفينة، على متنها ثمانية آلاف مقاتل وجعل ديقاودي فارا قائدا عليها.

انطلقت الحملة من سواحل الأندلس نحو باب الوادي، كان مخطط الإسبان يقضي بنزول واحتلال أعالي القصبة وقصف المدينة وانتظار قدوم جيش تنس ليكتمل الإطباق على المدينة، وما إن نزلت القوات الإسبانية حتى بدأت المناوشات والكمائن، وحينما أدرك الإسبان أن أتباعهم وأعوانهم خذلوهم، وأن سلطان تنس إنقطعت أخباره، أدركوا خطورة الموقف، فبدؤوا يهيؤون أنفسهم للإنسحاب، وما إن باشروا التراجع، فتحت أبواب المدينة وأغار عليهم المجاهدين من خارجها وداخلها، فسبب ذلك إرباكا شديدا لهم واجتمع عليهم المجاهدين، ولم يستطع الإسبان ركوب السفن لشدة هيجان البحر، وقد

[1]- بربروسا، مصدر سابق، ص 77.

[2]- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 39.

عصفت الرياح بسفنهم وألقت بها على الصخور، فكانت الهزيمة ساحقة، خسر فيها الإسبان عددا كبيرا من جنودهم ومعداتهم، وبعد هذا النصر الكبير أصبحت مدينة الجزائر منطلقا لحملات الإسترداد والتحرير[1].

لم يتوقف عروج عن الإستعداد لاستعادة أراضي المغرب الأوسط ولم يتوانى عن إمداد العون للمستضعفين، فبعد مدة سار إلى تلمسان بطلب من أهلها وفتحها، إلا أن أبو حمو الثالث والإسبان دبروا له مكيدة نقضوا من بعدها العهد والميثاق واغتالوه كما ذكرنا سابقا وكان اغتياله في جانفي 1518م.

### ب/ إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

بعد مقتل عروج في ضواحي تلمسان، أيقن الإسبان أنهم تخلصوا من أخطر أعدائهم، وأما في مدينة الجزائر، حزن خير الدين على هذه الخسارة الفادحة ولم يفوت ملك إسبانيا هذه الفرصة، فأرسل إلى خير الدين رسالة جاء فيها: "لقد مات أخوك وقتل أكثر جنوده فكسر جناحك، من تحسب نفسك حتى تقف في وجه أقوى ملك مسيحي بدون أخيك؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟ خذ سفنك ورجالك وأخرج من الجزائر[2]، وإياك أن تطأ قدماك أرض إفريقيا مرة أخرى، إن هذا آخر إنذار أوجهه إليك، سوف أملأ البحر بالسفن وأعود إلى الجزائر قريبا، فإذا تمكنت منك هنالك فلتعلم أن عاقبتك ستكون وخيمة".

---

[1]- العسلي، مرجع سابق، ص 95 – 100.

2- ينظر ملحق رقم (03).

عرف خير الدين أن مدينة الجزائر ستهاجم، فاستعد طوال الشتاء وفي 17 أوت 1519م وصلت حملة الملك شارل كان قادمة من صقلية بقيادة هوغو ديمونكادا ورست قبالة مدينة الجزائر، وأنزل الإسبان معداتهم والتحقت القوات المدافعة بالمناوشات واحتل الإسبان بعض الأعالي المحيطة بالمدينة وقلعة في كيدة الصابون عرفت بقلعة الإمبراطور وكانوا ينتظرون قدوم الجيش التلمساني ومكثوا في مواقعهم لستة أيام[1]، وعندما أدرك الإسبان أن الجيش التلمساني خذلهم شرعوا في الهجوم، حينها أظهر خير الدين حنكته الحربية، فأرسل عددا من المقاتلين خلف خطوط العدو، فأجهزوا على حراس المعسكر وأحرقوا القوارب لمنع الإسبان من الوصول إلى سفنهم، فلما رأى الإسبان من بعيد قواربهم تحترق إرتدوا ورجعوا إلى المعسكر في فوضى إغتنمها المجاهدون فأمطروهم بالرصاص وكبدوهم خسارة فادحة، وبحلول يوم 24 أوت 1519م كان قد قتل من الإسبان عددا كبيرا وأسر منهم ثلاثة عشر ألف وغرق عدد كبير، وتحطمت سفنهم بعدما عصفت بها الرياح وكانت الهزيمة التي نزلت بالإسبان كبيرة[2].

بعد هذا الإنتصار، عزم خير الدين على ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية[3]، وربط العلاقات معها، فأمر بالخطبة باسم السلطان وسك العملة باسمه، وخطب في أهل الجزائر قائلا: "إن السلطان العظيم سليمان خان الآن هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف تسنى لكم أن تتركوا خليفة المسلمين وسلطان العالم، وتقرؤون الخطبة وتضربون النقود باسم سلطان المغرب..."، وأوفد خير الدين

1- مرمول كربخال، إفريقيا، تر محمد حجي وآخرون، ج2، دط، مكتبة المعارف، الرباط – المغرب، 1984، ص 331.

2- مدني، مرجع سابق، ص 66.

3- ينظر ملحق رقم (03).

من الأعيان[1]، ومعهم حسين آغا إلى السلطان سليم، ودامت الرحلة إحدى وعشرين يوم وبعد عودته إلى الجزائر، قدم إلى خير الدين هدايا السلطان ومن ضمنها السيف والخلعة السلطانية والداية الأميرية ومن حينها أصبحت الجزائر إيالة عثمانية[2]، وبعث إلى الجزائر ألفا جندي من الإنكشارية.

## 3- الصراع السياسي في المغرب.

### أ/ الوضع السياسي العام في المغرب القرن 16م:

تبدوا صورة المغرب الأقصى في بداية القرن 16م صورة قاتمة، مغرب ممزق تقلصت فيه السلطة المركزية، وتوطدت السلطات الإقليمية، وصورة مغرب مدمر بتأثر الحروب والفتن الداخلية والغزو الخارجي، الأتراك من جهة الشرق والإسبان والبرتغال من جهة الشمال، فمنذ مطلع هذا القرن، بسك الأتراك سلطتهم على المغرب الأوسط وسعوا إلى الإمتداد إلى المغربين الأدنى والأقصى[3].

فقام الإسبان بطرد المسلمين من الأندلس وتم تشريدهم إلى مختلف مناطق المغرب العربي، وتطلعوا إلى شمال إفريقيا ومن ثمة تعرضت سواحل الشمال الإفريقي إلى هجومات إسبانية متكررة، كانت تنتهي في كثير من الأحيان باحتلال عسكري لبعض الموانئ الرئيسية، ولقد كان البرتغال الذي سبقهم إلى الشمال الإفريقي أيضا يقوم بنفس العمليات على سواحل المغرب الأقصى من جهة، والمحيط الأطلنطي من جهة أخرى، للإستيلاء على مراكز يستعملها لتزويد القائمين بأعمال الكشف

1- ينظر ملحق رقم (03).

2- بربروسا، مصدر سابق، ص 97.

3- ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 2003، ص 38.

الإستعماري في سواحل إفريقيا الغربية من أسواق مراكش، فكان لزاما على المغرب أن يدرأ عنه توغل الترك من جهة الشرق وتوغل الإسبان والبرتغاليين من الشمال والغرب، وهكذا بدأت عزلة المغرب النسبية عن العاملين الإسلامي والغربي بسبب هذا الحصار الذي فرض عليها من قبل الأجانب، وما كاد يطلع القرن 16م حتى كان الإسبانيون والبرتغاليون يسيطرون على معظم سواحل المغرب الأطلسية.

ففي الوقت الذي وقع فيه التنافس الإسباني البرتغالي على المغرب، كانت ظروف هذه البلاد العامة سيئة، فكانت تمر بأزمة سياسية واقتصادية حادة، فمن الناحية السياسية كان المغرب الأقصى عاجزا عن صد العدوان لعدم وجود سلطة مركزية يلتف حولها السكان[1]، وتكون قادرة على تزعم الجهاد وقيادة الكفاح ضد الغزاة، فبدلا من هذه السلطة، كان المغرب يشهد الأيام الأخيرة لبني مرين وبني زيان وبني حفص، الذين قضت عليهم الحروب فيما بينهم، جريا وراء القيادة والتزعم، هذا ما شعر به السكان حيال الأسرة الحاكمة التي تخللها الضعف، مما أدى إلى تفكك الوحدة وتماسك السكان، فانقادوا إلى التمرد والعصيان، متسببين بذلك في الكثير من الفوضى والإظطرابات التي قضت على جميع أنواع الأمن والإستقرار، مما أدى إلى انعدام الثقة بين الحكام والمحكومين.

فالسكان لم يعودوا يثقون بالمسؤولين لعدم قدرتهم على تلبية احتياجات الأهالي اليومية ولعجزهم الداخلي والخارجي والعكس الصحيح بالنسبة للحكام.

رافق الأزمة السياسية والإجتماعية أزمة اقتصادية حادة هذا في أواخر القرن 16م.

1- الزبيري، مرجع سابق، ص 14.

أما في بداية القرن 16م فقد برزت في المغرب الأقصى قوى أخرى إلى جانبها، وظهر عجز الحكومة عن مقاومة الهيمنة البرتغالية مقاومة ناجعة، فإن الجماهير المغربية ما كانت لترضى بسيطرة الكفار، فقد كانت تحرقها مشاعر العاطفة الدينية وكراهية الأجنبي، فتحملها على الوقوف في وجه الدخيل، حيث ما ظهر وكان ذلك أولا في الشمال، قرب سبتة وطنجة، ثم في سهل السوس وفي واحات درعة في الجنوب.

## ب/ الصراع الوطاسي السعدي:

تحول نشاط السعديين من الجهاد إلى طموح دولة كما سبقتها في ذلك العديد من الدول، يعود أصل السعديين إلى أرض الحجاز حسبما ذكرته كتب التاريخ، كما زعموا أنهم أشراف من مولد محمد النفس الزكية ويعود نسبهم إلى القائم بالله فهو: محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد إبن محمد بن أبي القاسم بن محمد الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسين المثنى بن حسن السيط إبن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهم بنوعم السادة العلويين أشراف سجلماسة[1]، يجتمعون معهم في محمد بن أبي القاسم المذكور في النسب، فقد جاء أهل سجلماسة بالمولى الحسن بن القاسم بن محمد بن أبي القاسم،وجاء أهل درعة بالمغرب من شبه الجزيرة العربية من نبع بالمولى زيدان بن أحمد وقد لقبوا بالسعديين طعنا في نسبهم بأنهم ليسوا بأشراف وإنما من بني سعد ببني بكر إحدى قبائل العرب، وكان أول ملوك السعديين بدرعة، أبو عبد الله محمد القائم بالله، فبعد انشغال الوطاسيين بقتال النصارى في ثغور الشمال وتراجع نفوذهم بالجنوب

1- ينظر ملحق رقم (04).

ببلاد سوس، فطلبت قبائل سوس من أن يكون لها أمير تقاتل معه النصارى فاجتمع الأمر على مبايعة الأمير أبا عبد الله القائم سنة 916هـ - 1510م[1].

## ج- الصراع السعدي الوطاسي في عهد أحمد الأعراج السعدي:

لما عاد أحمد الأعراج وشقيقه محمد السعدي من الحج إلى فاس، تفرغ أحمد الأعراج[2]، للدراسة في جامع القرويين ومحمد الشيخ لتربية وتأديب ولي العهد الوطاسي أحمد وكلفهما بإعانته في الجهاد، الأمر الذي منحهم السمعة الطيبة في سائر بلاد المغرب، وبرز دور أحمد الأعراج وشقيقه الأصغر في إقليم سوس حيث تمكنا من استرجاع عدة حصون في المغرب من يد البرتغاليين[3].

كانت التحركات الأولى لأحمد الأعرج الذي خلف والده قد بدأت تثير شكوك الوطاسيين، وتزايدت هذه الشكوك خاصة بعد دخول السعديين، فقد عقد أحمد الأعرج سلسلة من التحالفات مع الحركات الصوفية كما تحالف مع مرابطي الريف والجزوليين ومع أمراء هنتانة الذين كانوا يسيطرون على جزء من الأطلس، وتوسط الجازوليين بين أحمد الأعرج وأمير مراكش السابق ناصر بن شنوف الهنتاني وتمكن الطرفان من الإتفاق ضد الوطاسيين، ولما تنبه الوطاسي للمكائد التي تحاك ضده، قرر مهاجمة فاس وحاصرها، فتصدى له المرابط الشيخ الغزواني مما إضطره لفك الحصار بسبب ثورة أولاد عمه في فاس وعاد مسرعا.

---

1- أبو العباس الحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء(الأخبار لدول المغرب الأقصى)، ج4، دار الكتاب، الدار البيضاء – المغرب، 1997، ص 143.

2- ينظر ملحق رقم (06).

3- عامر فارس، مرجع سابق، ص 35.

بعد إخماد ثورة فاس عاد للصراع مع السعديين عام 1528م واشتبك معهم في معركة أخماي التي انتهت بالصلح بين الطرفين[1].

بداية من عام 1537م تحرك أحمد الأعرج نحو فاس، لكن الوطاسيين إعترضوا طريقه واشتبكوا معه على ضفاف نهر وادي العبيد سنة 943هـ - 1537م، واستطاع الإنتصار عليهم، لكن هذا الصراع كان يخدم مصلحة القوى الأجنبية، فقرر العلماء التدخل واقتسام البلاد بينهما فأقروا بالحكم للسعديين من تادلا[2]، إلى سوس وللوطاسين من تادلا إلى المغرب الأوسط[3].

### د- الصراع السعدي والطاسي في عهد محمد الشيخ السعدي:

تفرغ السعديون بعد الإتفاق السابق إلى تنظيم شؤون دولتهم الجديدة وتقوية أنفسهم، فلم يغفلوا أيضا الجهاد ضد البرتغاليين ففي سنة 1541م تمكنوا من استرجاع أغادير[4]، وعددا من الحصون كحصن فونتي سنة 947هـ - 1541م، وتبعه انهيار للقوة البرتغالية في جنوب المغرب فأخلو حصن آسفي سنة 948هـ - 1542م، وأزمور وتحررت بفضل جهود السعديين كل الحصون الجنوبية في المغرب[5].

تجهز السعديين بأسلحة حديثة إقتنوها من الإنجليز بفضل المصادر المالية الواردة من التجارة، لكن سرعان ما حصل خلاف بين أحمد الأعرج وشقيقه الأصغر محمد الشيخ من تحقيق الإنتصار بفضل

1- عامر فارس، مرجع سابق، ص 36.
2- ينظر ملحق رقم (06).
3- محمد الصغير الأفراني، نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحدى، تح هوداس، دط، مطبعة بردين، أنجي، 1888، ص 21.
4- فارس، مرجع سابق، ص 37.
5- الناصري، مصدر سابق، ص 20.

دعم قبائل سوس له، مما اضطر أحمد للانسحاب من تافيلالت[1]، وسيطر محمد الشيخ على الحكم سنة 951هـ - 1545م، وتوبع في مراكش وقبض على شقيقه أحمد الأعرج وسجنه، ثم تفرغ لحرب الوطاسيين فنقض الصلح الذي كان بينه وبينهم[2].

حاصر محمد الشيخ قلعة فشتالة واستولى عليها، وأصبحت الطريق أمامه مفتوحة وأكمل زحفه، لكن الوطاسين بقيادة السلطان أحمد تصدوا له في معركة على ضفاف وادي درنة أحد روافد أم الربيع وتمكن محمد الشيخ من الإنتصار، وأسر السلطان الوطاسي وكاد الجيش الوطاسي أن ينهار لو لا عم السلطان أبو حسون، حاكم إقليم بادس الذي نصب إبن السلطان أحمد حاكما مؤقتا ونجح في صد هجوم السعديينعلى مكناسة[3]، مقابل أن يطلق محمد الشيخ سراح السلطان الوطاسي، حيث قدم له الأخير جملة من التنازلات من ضمنها التنازل له عن الهبط والغرب ومكناسة واعترف له بلقب السلطان وسك العملة باسمه، وبعد إطلاق سراحه أمل أحمد الوطاسي بجمع قوة كبيرة لصد السعديين عن فاس، لكن محمد الشيخ عجل بحصار المدينة[4].

دام الحصار أربعة أشهر حتى تفشت المجاعة بالمدينة وبلغ ثمن القمح سعرا مضاعفا، وحاول السعديون إجتذاب علماء فاس، من خلال مراسلتهم لكسبهم ضد الوطاسين، وتارة يكاتب محمد الشيخ السعدي حاكم المدينة بالعفو مقابل الإستسلام له، ومن الفقهاء الذين أراد أن يستميلهم السعدي، الفقيه الونشريسي والفقيه الزقاق والفقيه سيدي حرزوز بمكناسة، حيث كان يكاتبهم

1- فارس، مرجع سابق، ص 38.
2- الناصري، مصدر سابق، ص 28.
3- ينظر ملحق رقم (06).
4- فارس، مرجع سابق، ص 39.

ويهددهم لكنهم رفضوا نقض بيعة السلطان الوطاسي، فأوفد الشيخ السعدي ممن ولاه من أهل فاس سرا وأغراهم بالمال وتواطؤوا على هدم صور الحصن ودخل السعديين للمدينة مع مطلع الصبح، لكن السلطان الوطاسي خرج من فاس الجديدة ومعه جند من أهل المدينة المخلصين، واشتبكوا معهم وهزموا قوات السعدي، فلما رأى جواسيس محمد الشيخ ذلك أسروا الندامة وخافوا بطش السعدي بهم والوطاسي على سواء، فعزموا على اغتيال الفقيه عبد الواحد الونشريسي بجامع القراويين، فرموه بسهم وخرجوا به إلى باب الجامع وقتلوه.

لما علم السلطان الوطاسي خبر مقتل الفقيه خرج إلى الناس وأبلغهم بعزمه التسليم للشيخ السعدي حفضا لدماء المسلمين، فأمنه وأرسله مع أربع مائة من عائلته وحاشيته إلى مراكش ثم دس لهم السم، ودخل الشيخ السعدي فاس ثم أخرجه منها أبو حسون المريني الوطاسي بعد أن جاء بجيش الترك من الجزائر كما سنورده لاحقا.

## المطلب الثاني: الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

كانت حالة البلدين اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، إمتدادا للعصور السابقة فلم يتغير نمط الحياة كثيرا بل بقي ممتدا للقرن السابق 14م، ومن خلال دراستنا لهذه الأوضاع من عدة زوايا قصد الخروج بحوصلة تجعلنا قادرين على فهم عميق لهذه الأوضاع وربطها ببعضها.

## 1- الوضع الإقتصادي.

### أ/ التجارة مع العالم الأوربي :

انتظمت العلاقات التجارية بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي، فكان الشمال الإفريقي نقطة لعبور السلع والمنتجات القادمة من الشرق وجنوب الصحراء، وكانت هذه السلع غالبا ما يقتنيها التجار الأوربيون قدموا من جنوة والجزر الإيطالية بصفة عامة، كما أعطى للسفن الأوربية حرية الدخول إلى الموانئ الرئيسية على طول الشريط الساحلي خاصة الموانئ الجزائرية، وكان لها إمتيازات وتسهيلات في شراء المؤونة والتزود بالماء وكل ما يلزم، ويشمل ذلك توفير الحماية للسفن مقابل دفع الرسوم الجمركية، واحتفظ العنصر المحلي بمهنة الوساطة بين التجار المحليين والأوروبيين[1].

عندما تصل السفينة تفرغ حمولتها ويتكفل المكتب الجمركي بتسجيل السلعة وإسم صاحبها، شريطة دفع الرسوم التي كان مقدارها 5 % أما عن تجارة المجوهرات والأحجار الكريمة، فكانت تباع للحكام مباشرة وتستثنى من الضرائب، كما كانت هنالك إستثناءات في بعض الأحيان فيما يتعلق بتسهيلات لسفن التجار المسيحيين لتجاوز العجز الذي قد يحصل في السوق من نقص في المواد الأساسية والصناعة[2]، فلقد كانت الدول الأوروبية تزود المغرب بالمعادن الثمينة التي لم تكن تستعمل فقط في سك العملة، ولكن في صنع الحلي التي كانت العروس المغربية تستعملها في تزيين نفسها بها عند

1- سبنسر، مرجع سابق، ص 22.

2- نفسه، ص 23.

الزواج وتلبسها طيلة حياتها كمهر لها، فكان الحرفيون المغاربة يقتنون من التجار الأوروبيين الصبغة النباتية والمركبات الكيميائية مثل الألمينيوم والبوتاسيوم والكبريت[1].

أما عن مدينة الجزائر، فقد كانت تصدر إلى أوروبا أنواع كثيرة من السلع، كالعبيد والخيول والسمك المقدد والمصنوعات الجلدية والملح والشمع والحبوب والمرجان وزيت الزيتون، وكانت دباغة بجاية مطلوبة جدا في وسط الإسكافيين الإيطاليين باسم اسكورزادي بوجي Iscorzadibuggiea وذكرت بهذا الإسم في تسجيلات تعريفية لكل من إبيزا والبندقية منذ القرن الرابع عشر...[2]

أما في المغرب فقد تأثرت أوضعه الإقتصادية نتيجة الحروب الداخلية التي هددت سواحله ففرضت عليه نظام شبه مغلق، هذا ما زاد سوءا وضع البلاد فعمت الفتن والاضطرابات وأصبح من الصعب وجود طرق آمنة للتجارة لا تتعرض للسلب والنهب، مما ساعد على التجزئة الداخلية، وجعل الوحدات السياسية تعيش في وضع شبه إكتفائي.

أما عن المدن الساحلية، فقد تعاملت مع الأجانب من البرتغال والرحالة والمستكشفين[3]، ومن المدن الساحلية التي كانت تشهد تجارتها رواجا مع الدول الأوروبية مدينة سلا، فلقد كان السلاوين يشترون من السفن الأوروبية المواد المصنعة، وكانت في مكانتها التجارية تنافس فاس ومراكش.

يمكن تقسيم التجارة في المغرب وخاصة مدينة فاس إلى داخلية وخارجية.

---

1- نفسه، ص 21.

2- سبنسر، مرجع سابق ، ص 25 – 29.

3- جمعية المؤرخين المغاربة، المغرب في عهد الدولة السعدية (دراسات تحليلية لأهم التطوران السياسية ومختلف المظاهر الحضارية)، ط3، د د ن، الرباط – المغرب، 2006، ص 14.

* **داخليا:** فقد كانت التجارة بفاس نشيطة وكانت مركز التجار الكبار والصناع والحرفيين، بالإضافة إلى موقعها المميز، إذ كان بها رواج كبير.

* **خارجيا:** حافظت فاس مع مرور الزمن على مكانتها فقد ارتبطت بها عدة طرق تجارية[1]، ساهمت في إثراء المعاملات التجارية الخارجية، فكانت علاقتها بسائر مدن إفريقيا، خاصة المغرب الأوسط كتلمسان ومعسكر وغيرها، كما ارتبط الفاسيين بتجارتهم بالمدن الأوروبية مثل إنجلترا، خاصة مدينتها مانشستر وفرنسا والولايات الألمانية[2].

## ب/ النشاط الحرفي والفلاحي:

عرفت منطقة المغرب العربي منذ العصور القديمة بأهمية موقعها الإستراتيجي لدى الحضارات، لتوفر الغلال وتنوع المنتجات وبراعة أهلها في الحرف، فلقد اشتهر المغرب الأوسط والأقصى بالعديد من الحرف والصناعات التي كانت موجهة لخدمة المجتمع، فأحصى حسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، العديد من الحرف بحسب أقطارها، فذكر عن مدينة الجزائر أن:"...لكل حرفة مكانها الخاص أي أنها كانت منظمة تنظيما حسنا، وكذلك مدينة تلمسان فقد كانت الحرف والصناعات موزعة على مختلف الساحات والأزقة، كما كانت تلمسان تتصدر المدن التي تشهد رواجا في النشاط التجاري والحرفي[3]،

1- ينظر ملحق رقم (01).

2- المشرقي، مرجع سابق، ص 47.

3- الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 19.

بالإضافة إلى مستغانم، التي كان سكانها يزاولون الحرف النسجية[1]، واشتغل الأندلسيون بعدما سكنوا شرشال[2]، بصناعة السفن والحرير[3]،إذ كان بالمغرب الأوسط تنوعا كبيرا في الصناعات الحرفية بحيث يصعب حصرها".

أما المغرب الأقصى، نجد العديد من المدن التي كان لها دور فعال في حلقة الإنتاج خاصة مدينة فاس التي يمكن تقسيم الحرف بها إلى ثلاثة أنواع:

1) **الصناعة الغذائية:** اعتمدت هذه الصناعة على الطواحن والمعاصر.

2) **الصناعة النسجية:** كانت تلقى رواجا زائدا في الأسواق الداخلية والخارجية لجودتها وأهمها:

- صناعة الملابس: وتعتمد على الأدوات التقليدية كالصوف والقطن والحرير.
- صناعة الدباغة: كانت تشغل عددا كبيرا من السكان وأكبر كمية من صادراتها توجه إلى الأسواق الداخلية.
- صناعة الأحذية: تنقسم إلى طائفتين، الطائفة الأولى هي الخرازة (البلايغية)، وهم صانعوا أحذية الرجال، أما الثانية فهي طائفة الشرايلين، وهم صانعو أحذية النساء، وكلا الطائفتين كانتا تصدران منتجاتهما إلى الأسواق الداخلية والأجنبية.

1- الوزان، مصدر سابق ، ج2، ص 32.

2- ينظر الملحق رقم (01).

3- الوزان، مصدر سابق، ص 34.

### 3) الصناعة المعدنية:

ظلت هذه الصناعة محافظة على قوتها مثل جميع أنواع الصناعات، فقد تطورت مع مرور الوقت، فيصنع الحداد مقصاة الإسكافيين ومحك الدباغين والمسامير والسلاسل....إلخ.

أما صانعوا الأسلحة فاقتصر عملهم على الخناجر والسيوف والبنادق وغيرها من الأدوات البسيطة[1].

أما عن النشاط الفلاحي، فإن أغلب أرض المغرب أرض خصبة عامرة بالناس، يسكن أغلب سكانها في البوادي والجبال، يعيشون على الرعي من تربية الأغنام في المناطق الجبلية، ووأما المناطق القريبة من الصحراء فأغلبهم بدو، يرتحلون صيفا شمالا بحثا عن المراعي وموارد المياه لمواشيهم، وفي الشتاء ينزحون إلى الصحراء في دورة مستمرة تضمن لهم البقاء.

أما عن سكان الأطلس، ففيهم من يسكن السهول ويحرثها ويزرعها قمحا، يبيع مقدارا معينا ويخزن الباقي، أما في الجبال فهي وافرة كالزيتون وسائر الفواكه المتنوعة، فمدينة الجزائر يحيط بها عدد من البساتين والأراضي المغروسة بالأشجار، خاصة الفواكه كسهل متيجة، حيث يزرع فيه قمح ذو نوعية جيدة[2].

1- المشرفي، مرجع سابق، ج1، ص 48.

2- الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 37.

كما اشتهرت مدينة مليانة بخيرات كثيرة حتى قال عنها الوزان:"تقع هذه المدينة في جبل على نحو أربعين ميلا من البحر (أي عن شرشال)، وهذا الجبل مليئ بالعيون زمكسي بأشجار الجوز، حتى أن الجوز لا يشترى ولا يقتطف...."[1].

أما عن مدينة تنس، فقد اشتهر إقليمها بإنتاج الكثير من القمح والعسل، أما عن مدينة تلمسان، فقد اشتهرت بساتينها وعلالها كسائر أقطار المغرب.

بصفة عامة"لقد اتبع الفلاح دورته الفلاحية وما يمليه عليه المناخ، فالعالم الفلاحي ينطلق من فصل الخريف في سبتمبر وأكتوبر، فيحدد الأرض المحروثة بحرقها وبتساقطات الأولى يشرع في حرثها والتحضير لعملية البذر، مستعملا ما يسمى بالزويجة، باستخدام ثورين مخصصين للحرث، كما أن أهل المغرب عرفوا منذ القديم فن التطعيم والتلقيم، بالنسبة للأشجار المثمرة المنتشرة بالمناطق الجبلية والسهلية كغابات الزيتون وغيرها"[2].

تتمايز الأعوام بوفرتها أو قلتها بحسب تساقط المطر في فصل الربيع، وبحلول شهر جوان تكون الحبوب قد وصلت إلى مرحلة النضج، فبعد حصادها تبقى الأرض لرعي الأغنام وتكرى هذه الأراضي للموالين القادمين من أرض الجنوب، أما عن النشاط الرعوي في هذه الفترة، فقد كان كبيرا في مناطق الأرياف والبوادي وبالخصوص المناطق الداخلية، حيث يسود المناخ الشبه جاف الموازي لخط المطر

1- الوزان، مصدر سابق ، ج2، ص 35.

2- محفوظ سعيداني، الفلاحة في بلاد المغرب في القرنين 18 – 19م، مجلة الدراسات الإفريقية، جامعة الجزائر 2، العدد 15 – 16، 2012 – 2013م، ص 197.

السنوي بين(600 – 800 مم).كما أن أهل البوادب ألفوا حياة الترحال للبحث عن المراعي لمواشيهم، وفي أغلب الأحيان تكون الأراضي تابعة للملكيات المشاعة، فتستخدم كمراعي موسمية[1].

## 2- الوضع الإجتماعي:

### أ/ المستوى المعيشي:

عرف أهل المغربين حياة متفاوتة تختلف بين منطقة وأخرى، وبين البادية والمدينة، إذ أن أهل البادية في غالبيتهم من العرب اعتادوا العيش في الخيام ورعي الإبل والأنعام مرتحلين بين المراعي، يعيشون على القمح والشعير الذي يردهم، وعلى ألبان النوق والتمر، لباسهم كسائر العرب يدل على حالهم من عناء وقسوة البيئة من أحوالهم[2].

أما عن سكان الجبال والسهول، فهم مزيج وخليط من العرب والأمازيغ، فالعرب يعيشون غالبا في السهول ويلحقونها بأملاك القبيلة، ويعيشون على زراعة الأراضي، لكن هذه القبائل تختلف في الثراء، فالقبائل الثرية تحوز على الأراضي الخصبة ولها عدد وافر من الأنعام، وإن من العرب من بلغت به الحاجة إلى الإغارة والنهب وقطع الطريق حتى تتمكن القبيلة من البقاء، أما عن أهل الجبال، فغالبيتهم من الأمازيغ يسكنون دورا من الصخر والتراب ويلبسون لباسا خشنا، أو قلنسوة تقيهم شدة البرد في الشتاء، أرضهم تصلح لزراعة الأشجار المثمرة، وهي عندهم وافرة لشجر الزيتون، كما تشكل القبيلة تجمعا يرئسها شيخا مقدما ذا نسب وعلم، ويتواصل أهل الجبال بأهل السهول فيجتمعون بالأسواق الأسبوعية

1- السعيداني، مصدر سابق، ص 199.

2- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 59.

ويشتري أهل الجبل ما يلزمهم وكذلك أهل السهول، أما عن أهل الحواضر من المدن فنجد بها مزيجا من الأعراق كلا ومنزلة من المجتمع، ويتمايز لباسهم، ففيهم الحرفيون والتجار وهؤلاء أحسن حالا من غيرهم، كما نجد الفقراء والأيتام الذين يتكفل بهم أهل الصلاح والخير، وبالمدينة أعلامهم منزلة العلماء والفقهاء والقضاة والأمراء[1].

كما شهدت الجزائر والمغرب الأقصى في بداية القرن 16م إنتشار الأوبئة التي انتقلت إلى المغرب مع المهاجرين الأندلسيين، فقد ظهر الوباء في سوس سنة 917هـ - 1511م، وانتشرت المجاعات في أغادير سنة 1518م، وعدد من المدن، وضرب المغرب جفاف كبير سنة 1520م، فتسببت هذه الأزمات في ارتفاع الأسعار سنة 1522م[2].

### ب/ الطبقات الإجتماعية:

في كل مجتمع لابد من وجود تمايز واختلاف في المنزلة الإجتماعية ومرة ذلك إلى مجموعة من الأعراف والضوابط التي تؤثر في المجتمع وتجعله يتقبل هذا الإختلاف، فالمجتمع المغاربي كغيره من سائر الأمم، انقسم ضمن ترتيب هرمي أساسه الطبقات السفلية التي تشكل الغالبية العظمى، وأعلاه الطبقة المرفهة (الغنية والميسورة) والتي لها صيت وجاه، فنجد بأعلى الطبقات طبقة الحكام والأمراء وعائلاتهم، ثم تليهم طبقة العلماء والصلحاء، وفيها يدخل شيوخ الإفتاء والقضاة وأصحاب الثراء من ذوي النفوذ، أما

1- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 68.

2- محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 – 17م، ط3، إفريقيا الشرق، الرباط – المغرب، 1998، ص 147.

في الطبقة التي تليها، فنجد التجار والحرفيين من ذوي الدخل المحدود، سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم من الذميين، أما عن الطبقات السفلى فهي مكونة من الفقراء من العامة وأدنى منهم منزلة العبيد والأسرى، بصفة عامة هذا ينطبق على المدن والحواضر، أما في الأرياف والبوادي، فهذا التقسيم مغاير نوعا ما، فالسائد هو النظام القبلي الذي نجد على رأسه شيخ القبيلة، أو المقدم عليها ومن حوله وأسرته، وبعد هذه الطبقة نجد أفراد القبيلة الذين يخضعون لشيخ القبيلة مع وجود استثناءات في بعض القبائل والعروش، ففي منطقة القبائل وهي جبال الريف في المغرب، نجد أحيانا أن شيخ الزاوية يمكن أن يكون هو سيد قبيلته.

كما أن في النظام القبلي نجد أن المحارب والفارس أحسن منزلة من سائر العوام، خاصة لدى القبائل العربية، أما عن التنوع العرقي في منطقة المغرب فنجد مزيجا، فأصل السكان هم من الأمازيغ أو ما تسميه بعض المصادر التوميد، ولم يستوطن العرب المنطقة إلا بعد الفاتحين، ولم يطغى التواجد العربي في المنطقة إلا بعد هجرة بني هلال من المشرق إلى المغرب وتوزعت وانقسم نسلهم في شمال المغرب كله، ولما دخل العرب الفاتحون شمال افريقيا وجدوا بها اليهود والنصارى، فمنهم من اعتنق الاسلام ومنهم من بقي على دينه، وبعد نكبة الاندلس وسقوط غرناطة إنكبت على شمال المغرب جموع الفارين من بطش الإسبان، وفيهم من ذوي الأصول العربية والأمازيغية واليهودية[1]، فقد بلغ عدد المهجرين الذين وفدوا على متيجة الجزائر وحدها 25 ألفا، ووهران حوالي 12 ألفا، استقروا بهذه المدن وكونوا جماعات خاصة

1- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 46.

بهم[1]، كما استقر الأندلسيون بالمغرب الأقصى في كل من سلا وتطوان و مراكش ومكناس، وأسهموا في بناء المجتمع المغربي.

## 3- الوضع الثقافي:

لقد تصارعت الدويلات الثلاث وعلى رأسها المرينية و الزيانية فاستغل هذا الوضع النصارى خاصة اسبانيا، فأغاروا على ثغور المسلمين، وأثر ذلك على الوضع الثقافي، فاشتغل العلماء في أغلب أحوالهم للدعوة والجهاد والحث على الإعداد لذلك، فقد أشار الأستاذ أبو القاسم سعد الله رحمه الله إلى هذا قائلا: "...ومن دراستنا لرسالة عبد الرحمان الثعالبي في الجهاد، نعرف مدى تدهور الأوضاع السياسية في وسط البلاد أيضا، ومنها أيضا نعرف مدى ضعف القادة السياسيين وأهمية دور العلماء والمرابطين في القيادة العامة في الحروب، ورد غارات الأجانب...."، ومن أثر الحروب على الوضع، أن هاجر العلماء إلى المشرق والمغرب، ومن العلماء الذين هاجروا من المغرب الأوسط إلى فاس، أحمد بن يحي الونشريسي، كما هاجر محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى السودان القديم، وممن هاجروا إلى المشرق وتوفوا به أبو الفضل محمد المشادلي البحائي وأحمد سالم الوشتاتي القسنطيني ومحمد بن أحمد المعروف بابن سعد التلمساني، ومن العلماء من تخل في خدمة السلاطين ومنهم من تفرغ إلى العزلة والتصوف[2].

1- رزوق، مرجع سابق، ص 131.

2- سعد الله، مرجع سابق، ص 44.

أما عن الحواضر والمدن التي كانت مركز الإشعاع الثقافي فنجد في المغرب فاس وجامع القرويين الذي شكل منارة العصر ومقصد العلماء، وبالمغرب الأوسط نجد مدينة بجاية وقسنطينة إذ كانت بها مدارس ومساجد لتعليم علوم الدين[1].

### 1) التعليم:

كسائر الأقطار الإسلامية وما تعارف عليه المسلمون باتباع السنة النبوية، يبدأ منطلق التعليم من الزاوية، حيث يتلقى الصبيان فنون الحساب والكتابة ثم يتدرجون في حفظ القرآن ومتون الحديث، ويتدارسها مع المشايخ فينهلون منهم ما استطاعوا حتى إذا أتموا مناهجهم رحلوا إلى قطر آخر لرفع مستواهم العلمي في علوم الفقه والتفسير وغيرها من العلوم الدينية وحتى الدنيوية كعلم الفلك والحساب[2].

كما أن أهل الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492م لما فروا أقاموا بحواضر معينة في كامل المغرب، فكانوا مقصد طلاب العلم، وما أضافه هؤلاء في مناهج التعليم، أنهم لم يقتصروا في تعليم القرآن للأطفال، بل تعداه إلى تعليم الحديث والقواعد العامة لمختلف العلوم وتدارس بعضها كما علموا علم القراءات كما نشر الأندلسيون خطهم حتى ساد على خط المغرب العربي[3].

1- الجيلالي، مرجع سابق، ص 275.

2- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 262.

3- سعد الله، مرجع سابق، ج2، ص475.

### 2) العلوم الدينية:

نقصد بها العلوم الشرعية كالدراسات القرآنية والقراءات ورواية الحديث ودرايته، بما في ذلك الإثبات والإجازات والفقهية من العبادات والمعاملات كالنوازل، وأهم ما تتميز به العلوم الشرعية في ذلك العهد.

التقليد والتكرار والحفظ، فالفقهاء قلما اجتهدوا أو استقلو بآرائهم، بل كانوا يقلدون سابقيهم تقليدا، فإذا ما حاول أحدهم أن يشذ عن التيار، أقاموا عليه الدنيا وأقعدوها...[1]

ومن بين العلوم التي كانت تدرس، علم التفسير الذي كان شائعا بين العلماء البارزين، ومن الذين اشتهروا بذلك محمد بن علي أبهلول وعبد القادر الراشدي القسنطيني وأبو راس التلمساني، ففي الغالب كان علماء التفسير ينقلون العلوم عن شيوخهم ويحفظونها حفظا حرفيا.

اشتهر في هذا العصر بتدريس القراءات أكثر مما اشتهروا بالتأليف فيها، ومن بين المناطق التي اشتهرت بتدريس هذا العلم هي منطقة القبائل، فقد كانت مقصد العلماء، ويقول في هذا الصدد الأستاذ سعد الله عن الشيخ محمد بن مزيان التواتي المغربي "فقد تثقف في المغرب في الفقه والنحو على الخصوص، حتى أصبح يلقب بسيبويه زمانه ومع ذلك فإنه حين جاء إلى قسنطينة وجلس للتدريس بها ولم يستغن عن الذهاب إلى زواوة لتعلم القراءات السبع بها، وكان من شيوخه فيها عبد الله أبو القاسم...".

1- سعد الله، مرجع سابق، ج2، ص 9.

أما في القراءات خلال هذا العهد فقد كان أقل من التفسير "فجل اعتماد علماء الجزائر حينئذ كان على مورد الضمآن"، للشريشي المعروف بالحزار المغربي وعلى شرح محمد التنسي والمسمى: الطراز في شرح ضبط الخراز، وفي نهاية القرن التاسع، ألف محمد شقرون بن أحمد المغراوي المعروف بالوهراني عملا في القراءات أيضا سماه "تقريب النافع في الطرق العشر النافع..."، ومن بين القراء المشاهير محمد بن تورينت العبادي التلمساني الذي توفي مجاهدا في فتح وهران[1].

أما علم الحديث فقد إعتنى الجزائريون به وأولوه اهتماما بالغا كونه علم مهم في التشريع والإفتاء والأحكام، ومن أوجه الاهتمام لدى المغاربة بصفة عامة هو الحفظ، فقد اشتهر الحفظة بالمتون الستة وصحيح البخاري ومسلم، وكان يدرس الحديث بالمدارس الكبرى والجوامع الشهيرة، وما ميز أهل المغرب في الحديث أنهم كانوا يقرؤونه بصوت رخيم حسن جوهري وتبرك بالحديث النبوي، فكان لا يكتفي بحفظه بل بإلقائه على الجنود أثناء الجهاد في الحروب ضد الإسبان حتى أن صحيح البخاري كاد ينافس المصحف في الإستعمال[2]، إذ لم يكن الحديث يدرس لذاته وإنما للعمل به وتطبيقه في النواحي الشرعية والمعاملات في الحياة، ومن بين المؤلفين في علم الحديث أحمد المقري وكان مشهورا برواية الحديث الذي أخذه من علماء المغرب والمشرق وقد ألقى في جامع الأمويين بدمشق الحديث واجتمعت حوله حشود كبيرة يستمعون له، وهذا إن دل فإنما يدل على تمكنه من هذا العلم[3]، ومن مؤلفاته "فتح المتعال في مدح

1- سعد الله، مرجع سابق، ج2، ص 22.

2- نفسه، ج2، ص 26.

3- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب، تح إحسان عباس، ج1، م1، دط، دار صار، بيروت – لبنان، 1968م، ص 5.

النعال" و"أزهار الكمامة في أخبار العمامة ونبذة من ملابس المخصوص بالإسراء والإمامة" كما نجد العديد من المؤلفات في الحديث والسنة كمؤلفات عبد العزيز الثميني الذي سماه "مختصر حاشية مسند الربيع بن حبيب وغيرها"[1].

إن الوضع السياسي في المغربين الأوسط والأقصى كان يسير نحو أفق مظلم، يخدم القوى الإستعمارية على حساب الوجود الإسلامي في غرب المتوسط، ما استوجب إيجاد بديل لحالة الركود السياسي والإنقسامات والخيانات.

لقد أسهم الوجود العثماني في الجزائر في تغيير الوضع للأحسن، وعزز الوجود الإسلامي من جديد، ونقله من مرحلة الارتباك إلى مرحلة الهجوم، بداية من التوحيد الداخلي الذي تم في عهد صالح راس سنة 1554م، لما ضم مملكة تلمسان المنهارة.

أما في المغرب الأقصى فقد احتل البرتغاليون والإسبان معظم أراضيه الساحلية ولم يستطع الوطاسيون رد الغزو الخارجي واسترداد ما أخذ منهم، وتزايد الضغط عليهم من خلال حالة الوعي التي ظهرت لدى الفرد المغربي، فوجد ضالته في تأييد السعديين لإزاحة الكيان المنهار واسترداد أراضي المغرب الأقصى من القوة المسيحية.

هذا التزامن بين القطرين، غير الحالة السياسية في البلدين بصفة كبيرة وأوقف الخطر الخارجي.

1- سعد الله، مرجعسابق، ج2، ص 30.

رغم تأثر الوضع الاجتماعي والاقتصادي بالظروف السياسية، إلا أنه لا يمكننا إغفال دور الجانب الثقافي والديني في توعية الوسط الاجتماعي والتحسيس بالجانب المنوط به، للدفاع عن الأرض واستردادها من العنصر المسيحي.

فلقد حظي القطر المغربي والجزائري بمؤهلات اجتماعية واقتصادية، إلا أنها لم توظف في تحقيق الإزدهار كما هو الحال في العالم الأوروبي، بل بقي على النسق القديم في المجال الإقتصادي.

# المبحث الثاني:

# علاقات الجزائر والمغرب

# سياسيا واقتصاديا في عهد

# البيلربايات

منذ ظهور الدويلات الثلاث، ونخص بالذكر الدولة الزيانية والمرينية، عرفت الجزائر والمغرب علاقات في المجال السياسي والاقتصادي، لكن مع مطلع القرن 16م، تراجعت هذه العلاقات وتحولت إلى ركود في أواخر عهد الدولة الزيانية بفعل اختلاف التوجهات، فالوطاسيين كانوا يمثلون حركة الجهاد في المغرب الأقصى والزيانيين كانوا يتخبطون في حلقة الصراع على الحكم ويسبحون في فلك الإسبان، ومع سقوط مملكة تلمسان تجددت الروابط بين حكام المغرب والجزائر في إطار الجهاد وحملات الإسترداد، فالعثمانيون في الجزائر كانت لهم علاقات طيبة مع الوطاسيين، ثم تحولت هذه العلاقات إلى عدائية في العهد الأول للدولة السعدية، حيث كانت سببا في الانقسامات السياسية وتراجع التعاون المتبادل بين البلدين، لكن سرعان ما عادت العلاقات لتتحسن في العهد السعدي الثاني (القرن 16م).

إن موقف الجزائر كان دفاعيا ضد الانتهاكات الحدودية التي كان يقوم بها المخزن، ولطالما طمحت الجزائر إلى تحسين التعاون، لكن تغليب المصالح كان سببا للصراع الحدودي الذي استغله الإسبان أحسن استغلال.

أما الجانب الاقتصادي فقد استمرت العلاقات التجارية بدون عوائق إلا في بعض الفترات، كالتعاون بين الجزائر والمدن الساحلية شمال المغرب، مثل تطوان وسلا وكان لتلمسان الدور البارز في تعزيز التجارة البرية بين البلدين.

## المطلب الأول: العلاقات السياسية.

بحكم الجوار بين البلدين كان لابد من وجود علاقات سياسية تحكمها مجموعة من المصالح التي تسعى كل دولة لتحقيقها، فمع توالي الأنظمة السياسية في المغرب الأقصى، تأثرت العلاقات بتوجه الأنظمة.

### 1- العلاقات الوطاسية في عهد البيلربايات:

يقول أحد الباحثين في هذا الشأن: "...لم يكن للجزائر سياسة خارجية متزنة وقد تأثرت علاقاتها الخارجية بصورة عامة بالتقلبات الداخلية وبنشاط القرصنة[1]، ولم تكن الجزائر تتقيد في علاقاتها الخارجية باتجاهات السياسة الخارجية العثمانية وإن كانت تأثرت بها في القرن 16م".

تميزت العلاقات الجزائرية المغربية بالتشابك والتعقيد، وذلك نتيجة تعدد القوى السياسية في البلدين، فقد كان بالمغرب أربع قوى رئيسية، الوطاسيون والسعديون والحفصيون والإسبان[2].

اختلاف أهداف تلك القوى السياسية التي كانت قائمة في البلدين والتشابك أيضا يتمثل في تعدد العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب على أكثر من طرف، فهناك علاقات كانت قائمة على الخصوص بين الزيانيين والوطاسيين، وبين الزيانيين والسعديين، وبين حكام الجزائر العثمانيين وبين حكام الجزائر والسعديين.

---

1- فارس، مرجع سابق، ص 108.

2- بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 76.

إذن يمكن القول أن العلاقات السياسية بين البلدين شكلت نوعا من التحديات الخارجية التي واجهت العثمانيين، إضافة إلى تحدي الإسبان والزعماء المحليين وسلطة الحفصيين بتونس[1]، ربما مثل هذه الملاحظات تصلح للمقارنة والموازنة.

لم يستفق المسلمون في المغرب من سباتهم إلا بعد أن خسروا العديد من الحصون الساحلية التي احتلها الإسبان والبرتغاليون، ففي المغرب الأقصى كان الوطاسيين يواجهون القوتين في نفس الوقت بين كر وفر، ومنه اعترف الوطاسيون بالسلطة الرمزية للخليفة العثماني على بلاد المغرب، حيث نقشوا اسمه على السكة ودعوا له في خطبة الجمعة[2]، وهنا يمكن القول أن العلاقات العثمانية المغربية تحولت في الجزء الأكبر منها إلى علاقات جزائرية مغربية، تقدم لنا دراسة مغربية رأيا آخر تناقش فيه رغبة سكان تلمسان والقبائل المجاورة لها في تفلتهم ولو تحت طائلة ظرفية تاريخية قاهرة، من تبعيتهم لبني وطاس والتفاتهم أيضا مجبرين بظرفية تاريخية أخرى، أي ترشيحهم للأتراك العثمانيين للدفاع عنهم، بدعوى أنهم مسلمين ولأنهم تمرسوا في الحرب مع المسيحيين وانتصروا عليهم في الكثير من المواقع[3]، وهذا يعود إلى حرص الوطاسيين على عدم التورط في التدخل خارج حدود المغرب، سواء لمساعدة الزيانيين أو الأتراك العثمانيين، بل كان من وراء هذه السياسة استفادة الوطاسيين من هيبة الأتراك العثمانيين في صراعهم مع القوى الخارجية في سبيل بقاء وجودهم بالمغرب[4].

1- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس، 1512 – 1543م، الجزائر، ط1، ص 219 – 220.

2- عبد الكريم الفلالي، التاريخ السياسي للمغرب الكبير، ط1، ش ن ط، القاهرة، ج4، 2006، ص 220.

3- يحي بلال، المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث، دار المعارف، مصر، 1965، ص 42.

4- بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 91.

كما كان اهتمام الوطاسيين بأخبار المملكة الزيانية بارزا لما دخل عروج تلمسان وخرج منها أبو حمو الثالث هاربا يطلب العون، فكان أول من طلب منهم العون حكام المغرب الأقصى في فاس، فوجدهم منشغلين بقتال النصارى، فقرر طلب العون من الإسبان وجاء بجيش، كما تقدم ذكره وأخرج عروج من تلمسان.

لقد ذكر الأستاذ أحمد توفيق المدن في كتابه حرب الثلاث مئة سنة، عن قصة خروج عروج من تلمسان: "...وكما انتهى كل ذلك أوى عروج وبقية رجاله إلى قلعة المشور، فتحصنوا بها منتظرين مددا وقد قيل أن عروج كان ينتظر النجدة من قبل ملك فاس الوطاسي المريني تنفيذا للإتفاق الذي عقد بينهما، وأن الملك المريني قد أرسل فعلا بجيش لنصرة عروج وتمكينه من الدفاع عن تلمسان ضد الإسبان وأنصارهم، لكن ذلك الجيش سار على طريق مليلة..."[1]، فطال به السير ولم يتمكن من الوصول إلى ميدان المعركة في الوقت اللازم"، وما يعزز هذا القول أن عروج فعلا كان ينتظر المدد وأنه توجه جهة الغرب في طرق ملتوية نحو الساحل.

لما مات أبو حمو الثالث ترك اثنين من ولده محمد عبد الله الثاني 1518، وأبو سرحان المسعود 1519، فكان الحكم الأول فثار عليه أخوه أبو سرحان المسعود ودخل تلمسان بمساعدة خير الدين والوطاسيين فأمدوه بالمال والسلاح، كما ورد أيضا في هذا الصدد أن الإسبان لما انهزموا في عدوانهم على الجزائر أو ما تعرف بحملة شارلكان سنة 1541، أرسل حسن باشا بن خير الدين برسالة إلى ملك فاس

1- مدني، مرجع سابق، ص 342.

أبي العباس الوطاسي في 05 جانفي 1542م دلالة على التضامن بين القطرين حتى أن السفن الجزائرية قد سمح لها الوطاسيون بدخول ميناء تيطوان للتزود بالمؤن[1].

غير أن صاحب (عروسة المسائل)يرى أن مرجعية العلاقات بين الأتراك العثمانيين والوطاسيين، كانت من منطلق ديني جهادي ذات طابع حلف إسلامي في وجه الكفار، واختياره لكلمة الكفار له مبررات عنده، منها إقدامهم على تنصير العرب[2].

هناك منطلق يجب ذكره بوجوب الحيلولة دون سقوط العثمانيين بالجزائر، مع اعترافه بسلطة هؤلاء في إقليمهم، وتقديم الدعم المعنوي لهم كما أشرنا سابقا والاعتراف بهم كحكام على الجزائر، ومن ثمة دعمهم ماديا، كل هذا يدخل ضمن التحالف الإسلامي ضد الكفار وليس من منظوره هو أن هذا يوجب للقوتين التبعية والقيادة لإحداهما على الأخرى[3].

ويشير أحد الباحثين أن العلاقات بين أتراك الجزائر العثمانيين والوطاسيين كانت سلمية وودية ولكنها لم ترق إلى مستوى التعاون الكبير والفعال ضد أعدائهم وخصومهم، بل يمكن القول أن الوطاسيين ذهبوا ضحية السياسة المترددة التي اتبعتها الدولة العثمانية والجزائر اتجاههم واتجاه المغرب عموما، وهذه السياسة إن دلت على شيء فإنما تدل على عدم جديتها في التدخل في المغرب بكل

1- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، ج7، دط، أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1988، ص 309.

2- أبي عبد الله محمد الكراسي التطواني، عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الوسائل، (د تح ط)، ص 18.

3- بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 89.

ثقلها، وأن المغرب لم يكن المحور الأكثر أهمية ضمن اهتماماتها، وهو ما لمسه في آخر حكم الوطاسيين وجعلهم يميلون مجددا إلى الإسبان والبرتغاليون[1].

وكانت مسألة أن العثمانيين كان همهم الوحيد إخضاع المغرب مرت بمراحل في البلديات كانت ترغب في ضم فصائل المغرب السياسية للتكتل في جبهة واحدة، الجبهة الإسلامية ضد جبهة الكفرثم رأت الدولة العثمانية أن هذا الأمر أصبح لا يغني من الواقع شيئا، لذلك مالت سياستها نحو التراخي والقبول بالواقع، فما هي مسببات ذلك التحول؟

يمكن القول أن دوافع ذلك التحول تكمن فيما يلي، يكون وراء تردد العثمانيين في سياستهم تجاه مغرب الوطاسيين هو مشاغل الدولة العثمانية في شرقي أوروبا ومشاغل الجزائر بأمر تلمسان وغيرها من الأمور الداخلية، وبروز السعديين قوة كبيرة تتمتع بثقة أهل المغرب والجزائر ومن ثمة كان من الأجدر أخذها بالسياسة واللين لا بالقوة والعنف، ولا سيما أنه بدا لها واضحا أن الحكام الوطاسيين الذين كانت ستعمل من أجل دعمهم.

محكوم عليهم بالزوال لعجزهم عن معالجة قضايا المغرب الكبرى وأهمها الغزو الخارجي والانقسام الداخلي...

واعتقد أيضا أن سياسة العثمانيين في ذلك المسار العلائقي كانت تخضع للزمان وللظرفية التاريخية، سواء اقليميا بين الجزائر والمغرب أو دوليا.

1- بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 89.

إضافة إلى الحضور الأوروبي في المنطقة وتحكم حسابات المصالح الاستراتيجية في ضبط العثمانيين للعلاقات مع القوى السياسية في المغرب.

إن هذه الاستراتيجيات يفهم منها أنها كانت مدروسة وفق خطة محكمة.

## 2- علاقات الجزائر مع السعديين:

بعد سقوط فاس سنة 1550م وجه محمد الشيخ السعدي أنظاره إل المغرب الأوسط وقرر احتلال تلمسان، وما زاده تصميما فرار خصمه أبو الحسون الوطاسي إلى الجزائر.

يقول صاحب كتاب الاستقصاء: ...فرأى الشيخ من الرأي إظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤوه، فنهض من فاس قاصدا تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر، وقتل في محاصرتها ولده الحران، وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه، ثم تولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الإثنين 23 جمادى الأول 1550م، ونفى الترك منها وانتشر حكمه في اعمالها إلى وادي الشلف[1].

كانت العلاقات قبل تدهورها بين السعديين وحكام الجزائر والتي أنشأها عروج مع السلطان الوطاسي أبي عبد الله محمد المعروف بالبرتغالي وذلك عندما إمتد حكم عروج إلى مدينة تلمسان، كما آل فيها الحكم في جنوب المغرب الأقصى إلى السلطان السعدي أ حمد الأعرج، الذي فتح أيضا باب

1- المدني، مرجع سابق، ص 329.

العلاقات مع الأتراك العثمانيين، كما عرفت هذه الفترة أيضا إقامة علاقات بين قوى سياسية متشبعة في القطرين كالعلاقات بين الزيانيين والوطاسيين وبين الزيانيين والسعديين[1].

إذ يمكن القول أن نظرة الطرفين إلى بعضهم البعض قائمة على عدم الثقة.

### أ/ المواجهات بين السعديين وأتراك الجزائر:

استغل السعديين انشغال حسان بن خير الدين 1550م بإعداده لفتح وهران بعدما جهز جيشا، ولما كان حسان بن خير الدين بالقرب من مستغانم بلغه خبر أن السعديين استولوا على تلمسان، فحول وجهته من وهران إلى ملاقاة السعديين الذين تقدموا نحو نهر الشلف، فالتقى الجيش الجزائري بقيادة حسان قورصو بالجيش السعدي لكن قوات السعدي الشريف سرعان ما انهارت وتراجعت، فاستغل الجزائريون الظرف واستعادوا مستغانم وتقدموا صوب تلمسان، فأرسل محمد الشيخ مددا من ألف رجل، والتقى الجيشان مرة أخرى بالقرب من قبة سيدي موسى، انتهت المعركة بهزيمة الجيش المغربي ومقتل الشريف عبد القادر ابن السلطان المغربي، وانسحب الجيش إلى ما وراء نهر ملوية[2]، ومن فوره دخل الجيش الجزائري تلمسان.

إن الدافع الذي جعل الشريف السعدي يقدم على مثل هذه الخطوة بغزو أراضي الجزائر واحتلال تلمسان، ثم طرده عنها أنها كانت تهدف إلى طرد العثمانيين من الجزائر وتلبية طلب كبار التلمسانيين في فاس.

---

1- بن خروف، مرجع سابق، ص 141.

2- المدني، مرجع سابق، ص 331.

وفي بادرة لتحسين العلاقة بين الجزائر والمغرب سنة 1553م بعد واقعة تلمسان، أرسل السلطان العثماني رسولا إلى إيالة الجزائر يأمر فيه بإيفاد وفد وكان الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي من أصل جزائري على رأس هذه البعثة، فدخلوا على السلطان المغربي بمراكش وفاوضوه باسم السلطان العثماني[1]، ضمن شروط من ضمنها الاعتراف بالسلطان العثماني مقابل عدم التدخل في الشؤون الداخلية للمغرب الأقصى، وجمع كلمة المسلمين والدعاء للسلطان العثماني في منابر المغرب وإطلاق سراح الأسرى من بني وطاس وترسيم الحدود بين الجزائر والمغرب الأقصى، لكن ملك المغرب رفض كل الشروط وطلبات السلطان العثماني ولم يقر إلا بشروط الحدود.

### ب/ مقتل الشريف محمد المهدي ورد فعل الأتراك:

لما علمت الدولة العثمانية خبر انقراض دولة الوطاسيين، أرسلت رسولا إلى محمد الشيخ يهنئه بالملك، ويلتمس منه الدعاء على منابر المغرب، فلما بلغ الرسول العثماني مراكش، أنزله السلطان المغربي أبي عبد الله الشيخ على كبير الأتراك وكان من الأتراك الذين انظموا له بعد سقوط فاس في يده بعد انقراض دولة الوطاسيين، فجعلهم جنده وسماهم الإنكشاري فلما اطلع السلطان وجده عرضا من السلطان يتضمن الدعاء له وسك العملة باسمه إنزعج وعاتب الرسول، فخرج الرسول من عنده مذعورا وركب البحر إلى اسطنبول، ولما بلغ السلطان العثماني ما كان، أراد أن يرسل حملة للمغرب، لكن الصدر الأعظم راجعه خوفا من يستغل الإسبان ذلك، ولعل هذا من ضمن الأسباب.

1- سامح عزيز ألتر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص 178.

والسبب وطريقة قتله هي كالآتي: شوكة الشريف السعدي الذي اشتد أمره وقوى ساعده بمراكش، كانت تؤلم جنوب الجزائريين وخاصة بعد أن نصبوا أبا حسون بفاس تحت حمايتهم وبطش به الشريف وما زاد تخوفهم إقدام السلطان المغربي على مفاوضة الإسبان قصد الوصول إلى إتفاق ضد دولة الجزائر للقضاء عليها وتقسيم أملاكها.

أرسل السلطان العثماني 12 رجلا واتصلوا سرا بمصالح كبير عسكر الشيخ ووعدوه بالمال ثم وفدوا بالجزائر واشتروا ما يلزمهم للسفر إلى مراكش، فدخلوا في حضرة السلطان في فاس، فقدمهم كبير الأتراك للسلطان وزينهم له في الكلام وأوهموه بأنهم فروا من جند الجزائر، فضمهم إلى جيشه وحرسه الخاص، وانتظروا الفرصة الحاسمة وقاموا بقتله وجميع حرسه ونجحوا بالفرار إلى الجزائر[1].

بعد مقتل الشيخ السعدي، أراد حسن بن خير الدين باشا استغلال الفوضى في فاس، فتقدم نحو واد اللبن لملاحقة فلول السعديين الهاربين من تلمسان، لكنه اصطدم مع قوات محمد الغالب، وكان القتال شديدا في أول أيامه وكان حسن باشا ذكيا وكان يعرف أن المواجهة المباشرة لم ولن تنجح، فقام بخطة ذكية، فأوقد النار في المخيم ليلا ليبدو كان العسكر فيه، وانسحب في جنح الظلام، فأرسل الفرسان نحو تلمسان وأنزل الانكشارية مع المدفعية بحرا، حيث كان الأسطول منتظرا.

إن انسداد العلاقات الجزائرية المغربية خلال الفترة الحديثة يقتضي بنا التساؤل: لماذا استعصى المغرب على الأتراك العثمانيين أنذاك؟ لعل الأمر يعود إلى مجموعة من الأسباب والدوافع سنذكرها فيما يلي:

1- المدني، مرجع سابق، ص 360.

– تمسك السعديين بأحقيتهم في الخلافة من الأتراك العثمانيين، فقد وجدنا خطابا رسميا في مدونة الرحلة السفارية للتمكروي، التي يؤكد فيها على شرعيتهم بالخلافة حيث يقول: "...والعثمانيون في جملة المماليك والموالي الذين دافع الله عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للإسلام، وإن كان أكثرهم وأكثر أتباعهم ممن يصدق القول عليهم قوله صل الله عليه وسلميؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، إن كانوا إنما حملوا الإمارة وقلدوا الأمر في الحقيقة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها هم موالي وسادة الشرفاء ملوك بلاد المغرب"[1].

ويقول أحد الباحثين المغاربة: إن السعديين كانوا يدلون على الأتراك بانتسابهم إلى الفترة النبوية ويلوحون بذلك إلى استحقاقهم للخلافة العظمى دون خلفاء بني عثمان، وهم إن لم يكونوا يصرحون بذلك فهم يكنون عنه كنايات مفهومة وأعظمها الضرب على وتر العلوية والوراثة الشريفة[2].

ولقد صرح السعديين بأحقيتهم بالخلافة، سواء من طرف كتابهم كما رأينا عن التمقروي وأحمد بن القاضي وصرح به الجانب الرسمي المتمثل في السلاطين أنفسهم والدليل ما قاله سلطانهم محمد الشيخ ردا على مبعوث السلطان العثماني سليمان القانوني قائلا:"...فقال له مولاي محمد الشيخ سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لا بد له أن ينازعك على عمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام...".

1– بسام العسلي، مرجع سابق، ص 87.

2– أحمد بن القاضي، لقط الفرائد من لفاظة حفق الفوائد، تح محمد حجي، بيروت، 1996، ص 846.

كان الحل الدبلوماسي خيارا لجأ إليه العثمانيون بإسطنبول في البداية لمعالجة مشكل المغرب مع ولاية الجزائر، وهذا تفسير على عدم رغبة الإدارة العثمانية خوض حرب ضد السعديين، كما اعتمد العثمانيون على الصوفية والعلماء فيما كانوا يلقونه من مشاكل في بلاد المغرب[1].

تغير التجارة الإفريقية نحو الجزائر وتونس بعد أن كانت الموانئ الصحراوية المغربية هي السوق والمصدر، على امتداد مسلك وادي درعة وسوس وتافيلالت، هذا التغير ترك حسرة ولوعة في نفوس السعديين ورغبتهم في إرجاع البريق الاقتصادي للواحات الصحراوية التي كانت مقر سيطرتهم ومنطلق حكمهم ونظامهم السياسي،هذا الأمر جعل من السعديين ينظرون إلى التلمسانيين كمنافسين لهم تجاريا، ويعتبر استيلاء السعديين على واحة توات عام 933هـ / 1526م، حدث ذو دلالات، منها أن السعديين حاولوا حلحلة التلمسانيين عن هاته الواحة، ذلك أنها كانت تؤدي دورا محوريا في التجارة الصحراوية[2].

الوضع السياسي في الجزائر في أواخر القرن 16م فالجزائر العثمانية رغم جهودها في المغرب، لكنها فشلت في تنفيذ هذا المشروع رغم العديد من الحملات، إلا أنها قبلت بالأمر الواقع وأبقت المغرب مستقلا عنها بعد أن كان إخضاعها فاشل، ولعل آخر محاولة شرعت في القيام بها لإخضاع المغرب ثم تراجعت عن إكمالها قد حصلت سنة 1581م.

1- الأفراني، مرجع سابق، ص 42.

2- بربروس، مصدر سابق، ص 86.

إعتماد البرتغاليين لأسلوب المعاهدات السلمية مع السعديين كمحاولة منهم إفشال التقارب العثماني السعدي ومن ثم منع أي نفوذ عثماني في المغرب، حيث تشير وثيقة برتغالية إلى توقيع معاهدة سلمية بين البرتغاليين والسعديين سنة 1537م، مدتها ثلاث سنوات.

إن تتبع العلاقات الجزائرية المغربية في عهد السعديين يعتبر من الصعوبة بمكان الإلمام بالموضوع في مثل هذا المبحث.

للخروج من هذا المبحث يمكن القول أن القرن 16م شهد امتداد النفوذ العثماني إلى الجزائر 1518م، كان المغرب يعيش في ظل الأسرة الوطاسية (1471 - 1554)، وبداية ظهور الأسرة السعدية (1509 - 1658)، التي استطاعت تصفية بقايا النفوذ الوطاسي في منتصف القرن 16م، وإعادة الوحدة الوطنية السياسية للبلاد.

سادت بين المغرب السعدي والدولة العثمانية علاقات سياسية وعسكرية سلبية في أغلب الفترات وكان ذلك بسبب التوسعية العثمانية التي ما انفكت تحاول، بعد أن هيمنت على جل الوطن العربي – فرض النفوذ العثماني على المغرب، لكن المغاربة قاوموا هذه المحاولات العثمانية في منتصف القرن 17م، وبدأت صفحة جديدة من العلاقات المغربية العثمانية بعد ظهور الأسرة العلوية 1631م.

## المطلب الثاني: العلاقات الاقتصادية:

يمكن القول أن الاقتصاد عرف بعض الانتعاش بين البلدين، خاصة مع وجود أسواق تكمل بعضها البعض، فقد كانت المغرب تدعم الجزائر بسلعها والعكس الصحيح، وكانت السلع تنقل عبر القوافل البرية بين البلدين دون نسيان الدور الفعال للموانئ.

### 1- تجاريا:

لم تكن المبادلات التجارية متنوعة مقارنة بالأسواق العالمية، فكانت التجارة الجزائرية تتم عبر الموانئ نظرا لقرب المسافة بين البلدين، لكن القوافل كان لها دور فعال وهام، والتي كانت تتم عبر مدينة مغنية بتلمسان ثم تتوجه نحو المغرب وهذا دليل على ضعف التبادل التجاري، حيث انحصر على تلمسان ووهران وكان لتجار بني مزاب وورقلة وبسكرة وقسنطينة الدور الفعال في التجارة مع المغرب، فسلعهم غالبا ما تتجه إلى فاس ومكناس وتيطوان، حاملين معهم الحرير المنسوج والفضة والخردوات وأدوات الزينة، وفي المقابل يجلبون من سجلماسة المواد الجلدية والخيول، غالبا ما تتغير طرق القوافل بحسب الظروف، لكن تبقى خطوط النقل للقوافل تنقل من اتجاه الغرب إلى الشرق والعكس[1].

وتعتبر أهم الطرق المشهورة هي الطريق الرابط بين فاس مرورا بتلمسان وصولا إلى مليانة ثم الجزائر إلى بجاية وعنابة، وكان هذا الطريق هو الأهم والآمن، وتعتبر تلمسان هي المحور الأساسي في

1- عائشة غطاس، الرف والحرفيون في مدينة الجزائر 1700 – 1830م، (مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه)، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر، 2000 – 2001، ص 40.

التجارة بين المغرب والجزائر، ولا عجب أن أهل تلمسان أكثر ثراء، فنجد هذه المدينة غنية نظرا لاستراتيجيتها الاقتصادية.

كما أن تلمسان تحتوي على طريق بري داخلي، يبدأ من مراكش بالمغرب الأقصى، ثم مكناسة ثم فاس ثم تلمسان، ثم يتجه بالمحاذات مع سفوح الأطلس الصحراوي حتى المسيلة ثم نقاوس ثم تبسة.

كما أن للتجار المغاربة وجودفعال في الجزائر من أجل إحياء وتقوية المعاملات التجارية، إذ أن المغاربة كانوا يستحوذون على المرتبة الأولى من مجموع الصفقات التي كان يجريها العنصر المغاربي، إذ تركز نشاطهم في تجارة هامة، كما أن مجموعة من التجار المغاربة لم يكونوا مستقرين، وإنما كانوا نزلاء في الفنادق مدة المعاملة التجارية.

أما قراصنة الجزائر فقد كان لهم حظ وفير في بيع غنائمهم على الموانئ المغربية، فنجد أن هؤلاء كانوا يترددون على ميناء سلا وتطوان لبيع العبيد والذخيرة، ويشتريها منهم المغاربة والإنجليز، وسمح لهم المغاربة باستعمال موانئهم، وهذا يدل على مدى التعاون التجاري.

كما أن المعاملات التجارية بين الجزائر والمغرب في عهد البيلربايات لم تتأثر بالأوضاع السياسية، نظرا للطابع الحدود الغير رسمية بين المغرب والجزائر والمغرب الأقصى.

## أهم المبادلات التجارية:

كانت صادرات الجزائر إلى المغرب هي السيوف والأقمشة الهندية والقسنطينية ومواد الصباغ النباتية والحرير التونسي[1]، كما أن المغرب كانت تصدر للجزائر الصابون والسكر والجلود والنعال المصنوعة من الجلد والحياك الصوفية والسلاح، أهمها السيوف والبنادق والأنسجة القطنية والشواشي والأقمشة الحريرية والخيول وتبر الذهب والبخور والنيلة ومن ضمن السلع التجارية الأسرى، فقد كان المغاربة يبيعون الأسرى كعبيد في الجزائر والعكس تفاديا لخرق الاتفاقيات التي تمنع بيع العبيد.

كان التطوانيين والسلاويين يبيعون الغنائم والمواشي التي غنموها من السفن في مدينة الجزائر.

## مراكز النشاط والتبادل التجاري:

أهم المدن التي كانت تلعب دور فعال في الحركة التجارية وازدهارها والتي تمثل موضع المبادلات التجارية، ولعل من أبرز هذه المدن هي الجزائر وسلا وتيطوان وبادس على الطريق البحري[2].

أما من الناحية البرية هي تلمسان وقسنطينة وسجلماسة وغيرها.

1- بن خروف، مرجع سابق، ص 319.

2- نفسه، ص 324.

### مدينة الجزائر:

برزت مدينة الجزائر كقوة اقتصادية بالتزامن مع نمو قوتها السياسية والعسكرية ونافست المدن الكبرى وتفوقت عليهم في المجال الاقتصادي، حتى سماها البعض بإسطنبول الصغرى، نظرا لاشتغال جل أهلها بالتجارة، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت مركزا هاما للاستيراد والتصدير بين دول الشمال الإفريقي وجنوب أوروبا، ومن ضمنها جنوة وصقلية والبندقية وحتى القسطنطينية وانجلترا، فكانت تستورد الحديد والنحاس والأقمشة من انجلترا، والفولاذ من فرنسا والألبسة القطنية من اسبانيا[1]، أما مواد الصباغة والعطور من المدن الإيطالية والأخشاب والصابون والحرير بدورها تصدر إلى أوروبا الصوف والجلود والشمع والتمر والغنائم عبر ميناء سلا وتطوان، وكانت مقصد التجار المغاربة القادمين من سلا وأصيلا والعرائش.

### تلمسان:

المركز المهم للتجارة الجزائرية في الغرب خاصة مع المغرب، لذا تعتبر محطة دولية تجارية تربط بين شمال إفريقيا وبلاد السودان، فقبل بزوغ نجم مدينة الجزائر ، كانت لها علاقات كثيرة مع مدن المغرب، كتازة وفاس وسجلماسة ودرعة وفجيج، فناحية تازة كان تجار تلمسان يتوجهون بتجارتهم وكانت مدينة تلمسان تمون مدن بعيدة جدا بسلع، وفي المقابل تصدر تازة إلى تلمسان الصوف والحبوب والماشية، وتستورد من فجيج المنسوجات ومن سجلماسة ودرعة ما تحتاجمن جلود والنيلة، ومن مزايا الموقع

1- بن خروف، مرجع سابق، ص 325.

الاستراتيجي لتلمسان أنها مثلت حلقة وصل بين الشرق والغرب، فلا بد أن تمر قوافل السودان التجارية عبرها وخاصة المتوجهة إلى المغرب أو المتوجهة من تلمسان إلى طريق الصحراء المؤدية نحو تكنتورين.

**تطوان:**

تمثل تيطوان أحد أهم المراكز التجارية بين الجزائر والمغرب، فقد اشترى خير الدين 1531م، الحبوب من هذه المدينة لتغطية العجز في مدينة الجزائر، كما كان التجار الجزائريين يتوجهون بسفنهم إلى المغرب ويرسون بهذا الميناء الهام الذي كان منفذا لشمال المغرب بعد احتلال المدن الساحلية كسبتة وطنجة ومليلة.

**سلا:**

نمت هذه المدينة بفضل الأندلسيين، نشأت العلاقات بينها وبين الجزائر في إطار الجهاد والغزو البحري، فقد كانت هذه المدينة سوق لبيع الغنائم من طرف الجزائريين، كما كان السلاويين يبيعون منتجاتهم في الجزائر[1]، وفي العهد الذي خضعت فيه سلا للدلائيين (1641 – 1664م)، وتولى الإمارة فيها الأمير الدلائي عبد الله بن محمد الحاج الحكم في الفترة الممتدة بين 1615 و 1661م، أقام تجارة نشطة مع الجزائر في الاتجاهين بالإضافة مرورا بالطريق البري والبحري الذي يربط المغرب بتلمسان ومعسكر والجزائر وصولا إلى تونس عبر التراب الجزائري.

1- المدني، مرجع سابق، ج2، ص 133.

## 2- صناعيا:

كان التنوع الحرفي في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى من النشاطات البارزة والأكثر ممارسة في العصر الحديث، مما جعل التنوع عاملا حتميا وبعض الحرف طابع مميز يميز الحرف المغاربية عن غيرها من الحرف الشرقية أو الأوروبية، إذ أن نمط هذه الحرف تتشابه بين القطرين، وقد تتخذ اليد الحرفية نفس الاسلوب في صناعة المنتج، نجد هذا التشابه بين الجزائر والمغرب الأقصى في المناطق الغربية للقطر الجزائري، كمدينة تلمسان ووهران وحتى وجدة، ولعل ما زاد تنوع الحرف وجودتها هو العامل البشري واليد العاملة الخبيرة، ونقصد هنا الأندلسيين الذين وفدوا على المغرب العربي حاملين معهم الطابع الفني ذاته في إنجاز الحرف.

فن الزخرفة والنحت على الجص أصبح أكثر جودة مما كان عليه وقام الحرفيون بإنجاز العديد من التحف التي لا تزال ماثلة حتى الآن.

أما فيما يخص حرف النسيج، فقبل الفتح الإسلامي عرف المغاربة هذه الحرف خاصة فيما يتعلق بصناعة الزرابي، إذ كان الأمازيغ لهم طابع مميز في الرسم على الزرابي، ولكن يوجد تشابه في إعداد المواد الاولية للعمل الحرفي عبر خطوات معينة.

أما من حيث اللباس فكانت العباءة المنسوجة بالوبر أو من الخيوط الناعمة الرفيعة، أما الأحذية وصناعة السروج وهناك تشابه وتقارب في صناعة الخزفيات والنقش على الأواني النحاسية التي تستعمل في الزينة وحتى في المستلزمات اليومية.

ومنه يمكن القول أن التقارب الاقتصادي الجزائري المغربي في عهد البيلربايات كان موحد، وتقارب وتشابه كبير وكان سلمي في عهد الوطاسيين.

أما العهد السعدي فقد أثر محمد الشيخ السعدي بأطماعه التوسعية على العلاقات الاقتصادية الحسنة، فقد كانت نظرته للوجود العثماني في الجزائر نظرة عدائية، وكان يعتبرها احتلال.

# المبحث الثالث:

# مظاهر العلاقات الثقافية والاجتماعية والدينية

إحتل العلماء المغاربة منذ العهود الإسلامية الأولى مكانة مرموقة في المشرق والمغرب، فتميزوا عن سائر العلماء وقدموا الكثير للعالم الإسلامي في شتى المجالات، وقد استفادت الجزائر والمغرب من هذا التبادل وانعكس ذلك على الجانب الثقافي، فكان الإنتاج العلمي في بلاد المغرب ثريا متنوعا، شجع على تبادل المعارف.

## المطلب الأول: التقارب الفكري بين علماء المغرب والجزائر.

### 1- الحواضر العلمية:

سجلت لنا كتب السير والتراجم جانبا من جوانب التقارب الفكري بين علماء الجزائر والمغرب، فقد كانت عدة حواضر في المغرب الأقصى مراكز هامة يقصدها الطلبة الجزائريين والأساتذة والمشايخ للتعلم، وأخذ الإجازة وتصدر مجالس التدريس، خاصة بجامع القرويين بفاس، ومن أقرب نقطة في الغرب الجزائري للمغرب الأقصى، كان التلمسانيين يعبرون لفاس للغرض ذاته وكذلك يعبر المغاربة إلى الشرق وبالضبط إلى تلمسان وعدة مدن جزائرية لأخذ الإجازات العلمية من علماء تلمسان[1].

من علماء المغرب الذين وفدوا إلى الجزائر نذكر:

**محمد بن علي الحاج الشطيبي:** هو أبو عبد الله محمد بن على بن أحمد بن محمد الأندلسي المعروف بالحاج إبراهيم بقبيلة بني زروال، ولد سنة (1470م)، هاجر إلى المشرق والجزائر وأخذ العلم

1- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 02.

من الشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الملياني المدفون بمليانة، كما له العديد من المؤلفات مثل كتاب اللباب على آية الكتاب وشرح المباحث الأصلية لابن البناء السرقسطي، توفي سنة (1493م)[1].

**عبد الله الورياجلي:** هو أبو محمد عبد الله الورياجلي، من أبرز العلماء الذين يؤخذ عنهم العلم الشرعي، أخذ عن الإمام القوري والعبدوسي، رحل إلى تلمسان للأخذ عن الإمام إبن مرزوق شارح البردة وشارح مختصر خليل، وصل تلمسان وحدثت بينه وبين ابن مرزوق حادثة جليلة تدل على التواضع بين العلماء، كان يشد الرحال إلى العلماء أينما كانوا، ثم رجع إلى المغرب فلزم الجهاد واشتغل بالتدريس والافتاء في أمور الدين[2].

**عبد الله الخياط الزرهوني:** هو أبو محمد عبد الله الخياط نزيل جبل زرهون، أجازه الشيخ الكبير أبي العباس أحمد الملياني، توفي سنة 1030هـ - 1621م[3].

**أحمد تاخريسان الراشدي:** هو أبو العباس أحمد المعروف بتاخريسان من جبال بني راشد، كان من أكابر العلماء وشيخ من شيوخ أبو عبد الله بن هبة الله، تردد على تلمسان وزار علمائها فقال صاحب دوحة الناشر:"...حدثني شيخي أبو عبد الله بن هبة الله وهو ممن أخذ عنه، قال لي كان الشيخ بن تاخريستان إذا قدم تلمسان تعطلت الدروس فيها مادام الشيخ مقيما بها، إجلالا لمقامه ورغبة في الأخذ منه..."، توفي والله أعلم في العشرة الثانية[4].

1- ابن عسكر، مصدر سابق ، ص 16.
2- نفسه، ص 30.
3- نفسه، ص 83.
4- نفسه، ص 129.

من علماء الجزائر الذين هاجروا إلى المغرب لطلب العلم والتدريس نذكر:

**محمد شقرون بن محمد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني:** المتوفي سنة 929هـ - 1523م، كان حافظا للحديث ومقرئ من فقهاء المالكية، أخذ عن أبي غازية وغيره، ألف كتاب الجيش الكمين في الكر على من يكفر عوام المسلمين، وكتاب تقيد على مورد الضمآن[1]، قدم إلى فاس سنة 967هـ في عهد السلطان الغالب ابن محمد الشيخ السعدي، واشتغل بالفتوى والتدريس بمراكش واشتهر بعلمه في سائر بلاد المغرب، وأخذ على شيوخ تلمسان بالمغرب، توفي في فاس[2].

من شيوخه أحمد بن زكريا التلمساني وسئل صاحب الدوحة شيخه ابن شقرون فقال:"...أما ابن زكريا فلا يطار تحت جناحه..."، وذلك لعلمه الغزير[3].

**محمد بن عبد الرحمان بن جلال:** هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان ابن التلمساني، كان إمام علم الكلام، ذهب إلى فاس في أيام السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف، فولاه منصب الإفتاء بفاس والتدريس وخطيبا بجامع الأندلس، ثم صار يخطب بجامع القرويين، أخذ العلم في شبابه عن شيوخ تلمسان ومكث في المغرب حتى توفي عام 981هـ - 1573م[4].

1- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من مصدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت – لبنان، 1980، ص 189.

2- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 116.

3- نفسه، ص 119.

4- نفسه، ص 123.

**بن محمد العقباني:** هو أبو العباس أحمد بن محمد بن قاسم العقباني، كانت له منزلة كبيرة في الفقه، قدم مع الشيخ أبي عبد الله محمد شقرون وأحمد العبادي، وتصدر التدريس بجامع القرويين، توفي في آخر العشرة الثامنة بفاس[1].

**أحمد شقرون بن أبي جمعة المغراوي:** هو أبو العباس أحمد أبي جمعة المغراوي ثم الوهراني، لقب بشقرون الوهراني لأنه أشقر اللون أحمر العينين، رحل إلى فاس ودرس بها وكان أبرز الفقهاء بها وله مؤلف: جامع جوامع الاختصاص والتباين فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان، توفي في العشرة الثالثة[2].

**محمد الخروبيالسفاقسي:**هو محمد بن علي الخروبي الطرابلسي أو السفاقسي الجزائري، كان فقيه الجزائر في عصره من قرى طرابلس الغرب ونشأ بالجزائر وولي الخطابة سنة 959هـ - 1552م، رحل إلى المغرب الأقصى وأوفد السلطان العثماني كسفير له عند أبي عبد الله المهدي الشريف الحسني، زار فاس ومراكش وله عدة مؤلفات: "رسالة ذوي الإفلاس إلى خواص أهل فاس"، و"شرح صلاة ابن مشيش"، و"الأنس في التنبيه عن عيوب النفس في تفسير القرآن"[3]، إلتقى علماء المغرب وأخذ عنهم وكان وروده على فاس في أيام السلطان أبي عبد الله محمد الشريف سنة 959هـ - 1552م، كان ذو قدر وشأن عند علماء المغرب ذ، توفي سنة 963هـ - 1556م بالجزائر[4].

1- ابن عسكر، مصدر سابق ، ص 123.
2- نفسه، ص 125.
3- نويهض، مرجع سابق، ص 132.
4- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 126.

**علي بن عيسى الراشدي التلمساني:** أستاذ في القراءات وقواعد اللغة والأدب، من أهل تلمسان، هاجر إلى فاس وسكن بها واشتغل بالتدريس خاصة في أول الأمر بتدريس المنظومات الأولية المتعلقة بضبط القرآن ورسمه وتجويده، ثم أسند إليه كرسي الشاطبية الكبرى بمسجد الشرفاء، فدرس زمنا طويلا وختمها مرات واستعان في شرحها بما ذكره المنجور في الفهرست[1].

**أحمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب العابدي التلمساني:** المتوفي سنة 980هـ - 1572م[2]، قال فيه صاحب الدوحة:"...هذا الرجل من فحول العلماء، كبير الهمة، غزير العلم، كريم السجية، له نفس أبية وهمة عالية..."، انتقل إل فاس سنة 968هـ - 1561م، وكان سبب ذلك الفتنة التي وقعت بين الترك وأهل تلمسان، فلما استغاث علماء تلمسان بسلطان المغرب عبد الله الغالب، رحلهم إلى فاس وأجرى لهم المنح، ومن بينهم الشيخ أحمد بن أحمد العابدي التلمساني، وهو صاحب كتاب دوحة الناشر من الطلاب الذين أجازهم هذا الشيخ التلمساني[3].

**الزواوي: المتوفي سنة 996هـ - 1590م، هو يحيى بن سليمان الزواوي:** عالم بالفقه الملكي وبالعقائد، رحل إلى فاس سنة 983هـ، ثم عاد إلى الجزائر[4].

**المطغري:** (871 - 951هـ / 1466 - 1545م)، هو علي بن هارون أشتهر بالمطغري أبو الحسن، من كبار الفقهاء في المذهب المالكي، له مشاركة في علم التفسير والعربية والحساب والفرائض،

1- نويهض، مرجع سابق، ص 72.
2- نفسه، ص 65.
3- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 118.
4- نويهض، مرجع سابق، ص 167.

ولد في مطغرة من أعمال تلمسان، وانتقل إلى فاس سنة 891هـ - 1486م، فلازم العلامة ابن غازي 29 سنة في البحث والتحقيق، أخذ عنه ابنه أحمد، كان حافظ ذو فضل كبير في العلم[1].

**محمد بن محمد بن العباس التلمساني:** عالم نحوي ومحقق، أخذ على علماء كبار أمثال السنوسي والكفيف وابن مرزوق والحافظ التنسي وابن زكري، رحل إلى فاس وأخذ من علمائها أمثال ابن غازي، ثم عاد إلى تلمسان، له عدة مؤلفات، كان حيا سنة 920هـ - 1514م[2].

**محمد بن عبد الرحمان بن جلال:** تلمساني الأصل استقر بفاس، كان فقيها ومفتيا خطيبا وفقيها في العقائد والحديث والأدب، توفي بفاس في رمضان سنة 981هـ - 1573م، وولد سنة 908هـ - 1502م[3].

**أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنفد القسنطيني:** هو أبو العباس الشهير بابن الخطيب وابن القنفد، كان قاضي وعلامة محدث، أخذ العلم من عدة شيوخ كالإمام الشريف أبي عبد الله التلمساني والشيخ الحافظ أبي عمران موسى العبدوسي، لقي الكثير من العلماء في الفقه وحتى في النحو، إرتحل إلى فاس سنة 959هـ - 1552م، ولقى أبا القاسم السبتي وأخذ عنه، له عدة مؤلفات "شرح

1- نويهض، مرجع سابق، ص 306.

2- أحمد بابا اليمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق عبد الحميد عبد الله الهرمة، ج1 -2، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس – ليبيا، 1989م، ص 585.

3- نفسه، ص 599.

الرسالة في أسفار" و"شرح ألفية بن مالك وكتاب" و"بغية الفارض من الحساب والفرائض"، توفي سنة 910هـ - 1505م[1].

ومن ضمن الأسباب التي شجعت التطور العلمي في المغرب والجزائر وجود حواضر علمية، والتي ساهمت في تخريج العديد من العلماء والفقهاء البارزين أمثال عبد الواحد الونشريسي، لعل من أبرزها مدينة فاس في المغرب الأقصى وتلمسان في المغرب الأوسط.

**مدينة فاس:**

تعتبر فاس مدينة العلم في سائر بلاد المغرب، إذ لها جامع القرويين الذي أسهم في دفع الحركة الثقافية والفكرية، خاصة في أزها العصور التي شجع فيها نشر العلوم والمعرفة ونصرا لقيمة المدينة ثقافيا، فقد كثرت فيها المدارس كمدرسة العطاريين التي بنتها أبو الحسن المريني سنة 747هـ - 1346م، على مقربة من جامع القرويين، وعرفت بمدرسة مصباح وكذلك المدرسة البوعنانية التي بنيت بعد سنة 752هـ - 1351م، على يد أبو عنان المريني في القسم الغربي من المدينة والتي كانت مركز لإلقاء المحاضرات، ومدرسة النحاسيين التي هي الأخرى كانت مهمة في مدينة فاس، وقد خصص من هذه المدارس بيوت سكنية للطلاب الوافدين من كامل أقطار المغرب، كذلك نجد مدرسة السلطان العلوي المولى الرشيد التي بنتها سنة 1081هـ - 1670م، وجعلها ملتصقة بجامع القرويين، كما بنا العلويين عدد كبير من المساجد في مطلع القرن 17م[2].

1- أحمد بابا اليمبكتي، مصدر سابق، ص 109 – 110.

2- روجيه لوتورنو، فاس في عهد بني مرين، تر نقولا زيادة، دط، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنسر، بيروت – لبنان، 1967م، ص 43 – 46.

فقد أولى حكام المغرب الأقصى في العصر السعدي والعلوي الجانب العلمي اهتماما كبيرا، فقد استقطبوا العلماء والطلاب إلى المغرب الأقصى ومن بينهم الشيخ محمد السعدي، الذي يجالس العلماء في مجالس الفقه ويناقشهم في عدة مسائل[1]، وأيضا ابنه عبد الله الغالب الذي استجلب مجموعة من علماء تلمسان بعد خلافهم مع العثمانيين وأقر لهم معاشات في فاس[2].

أحصى الوزان في كتابه إحدى عشر مدرسة جديدة البناء، كانت جل هذه المدارس تمول من طرف الأوقاف التي تصرف مداخيلها على الطلاب من دفع مصاريف اللباس والمأوى لمدة سبع سنوات وأجرة شيوخ المدارس ولا عجب أن يجد علماء تلمسان جوا مناسبا للعلم والعمل في التدريس[3].

**مدينة تلمسان:**

منذ عقود أولى سلاطين بني زيان اهتماما بالجانب الفكري اهتماما كبيرا، فقد تنافست هذه المدينة القديمة مع فاس في استقطاب العلماء والطلاب في مختلف العلوم الشرعية، وحرصا منهم على تثبيت دعائم العلم في هذه المدينة فقد بنا الزيانيين المدارس والمنازل لإيواء الطلاب، ووهبوا العلماء اقطاعيات وأوقفوا الأوقاف لهذه المدارس لأجل تمويلها، واستمالوا العلماء لتوليتهم مناصب التدريس والإفتاء كما فعل أبو حمو الثاني مع ابن خلدون سنة 769هـ - 1368م،حينما استدعاه وطلب منه المجيئ للتدريس بتلمسان[4].

1- الناصري، مرجع سابق، ج5، ص 35.
2- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 116.
3- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 226.
4- شقدان، مصدر سابق، ص 225.

كان الجامع الأعظم بتلمسان منارة علمية مميزة، درس بها علماء كبار وتعاقبوا عليها مثل العلامة ابن مرزوق[1]، فقد درس بها علماء وحضوا بمكانة مرموقة، فكان يستشيرهم السلطان، فجعل لهم زي خاص يميزهم عن غيرهم دلالة عن رفعة مكانتهم في وسط المجتمع التلمساني[2]،ولتميز مناهجها التعليمية فقد قصدها العديد من العلماء المغاربة ودرسوا بها، ومن بينهم علماء كبار مثل عبد الله الورياجلي[3]، وعبد الله الخياط الزرهوني[4]، وعدد كبير من العلماء.

يكمن السبب في التنافس القائم بين فاس وتلمسان بين السلاطين، فقد نقلوا التنافس من المجال السياسي إلى المجال الفكري لجعل هذه المدن أكثر شهرة وتألقا.

## 2- الإجازات العلمية.

تعتبر الإجازات العلمية أمر مهم في الإرتقاء إلى درجات الفقه في الدين، ولا بد أن يجاز الطالب على يد عالم فقيه ملم بسائر المسائل في علوم الدين ومشهود له بذلك، فالعالم يقدر علمه بدرجة الإجازات العلمية، فهي بمثابة الشهادة التي تمنح له.

1- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 30.
2- نفسه، ص 28.
3- نفسه، ص 30.
4- نفسه، ص 83.

**الشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الملياني:** فقد كان هذا الشيخ غزير العلم زاهدا في الدنيا ومن العلماء الذين أجازهم، الشيخ محمد بن علي الحاج الشطيبي واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن محمد الأندلسي المعروف بالحاج الشطيبي[1].

**عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي (885 – 955هـ/1480 – 1549م):** فقيه مالكي كبير في تلمسان، هاجر والده إلى فاس سنة 847هـ – 1470م، وسكن بها حتى مات سنة 914هـ – 1508م، أخذ العلم عن والده ابن الغازي وابن الحباك وغيرهم[2]، كما أخبر عنه الفقيه أبو عبد الله محمد النالي المعروف بالمفسر، ونقل عنه في المعيار المغرب[3].

**عبد العزيز القسنطيني: أبو فارس عبد العزيز القسمطيني:** كان من شيوخ الصوفية، من تلاميذه أبو عبد الله ابن عمر المطغري وأبو عبد الله محمد بن علي الدرعي، توفي سنة 940هـ – 1543م.

**محمد بن أبي مدين التلمساني:** هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي مدين التلمساني، أخذ عنه وأجاز أبي عبد الله محمد بن هبة الله، توفي سنة 904هـ – 1499م[4].

**محمد بن عيسى التلمساني:** أبو عبد الله محمد بن عيسى التلمساني، أحد شيوخ بن هبة الله وأخذ عنه عديد من علماء المغرب كافة[5].

1- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 16.
2- نويهض، مرجع سابق، ص 334.
3- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 34.
4- نفسه، ص 132.
5- نفسه، ص 134.

مما أوردنا سابقا إنما جاء على سبيل ذكر أبرز العلماء إذ لا يمكن حصر عددهم لكثرتهم، فما يميز العلماء في هذه الفترة، أن العلماء لم يكونوا يكتفون بالإجازة فقط ذ، بل ينهلون من مؤلفات بعضم البعض، ويراسلون بعضهم البعض، ومن ضمن تلك المراسلات التي حدثت بين محمد الخروبي مبعوث الترك إلى محمد الشيخ السعدي وعلماء فاس واغتنم فترة وجوده بالمغرب ليتحصل على إجازات من بعض العلماء في عدة مسائل مثل الشيخ زروق[1].

من المناهج التي كانت تدرس بمدارس المغرب والجزائر، العلوم النقلية والعقلية.

**العلوم النقلية:** هي العلوم المتخصصة بالمسلمين وهي مستندة إلى الشرع من الكتاب والسنة، وتتنقسم إلى فرعين:

**الفرع الأول:** العلوم الدينية والشرعية، وتشمل الفقه، الحديث، التفسير، أصول الكلام، أصول الدين، القراءات، الفرائض، التصوف والرؤيا.

**الفرع الثاني:** العلوم اللسانية، الإجتماعية، سهل الأدب، البلاغة والتاريخ...[2]

**العلوم العقلية:** هي علوم طبيعة الإنسان غير مختص بملة معينة، كالفلسفة والحكمة، وتتفرع إلى علم المنطق، العلوم الطبيعية، العلوم الروحانية، علم المناظر في المقادير والأعداد وعلم الهيئة والفلك، وتتفرع هذه العلوم إلى عدة علوم أخرى.

1- الناصري، مرجع سابق، ج5، ص 27.
2- شقدان، مرجع سابق، ص 230 – 235.

كانت هذه العلوم تدرس وفق منهج ووقت زمني محدد[1]، فقد كان الشيخ عبد الواحد الونشريسي يقرأ صحيح البخاري بجامع القرويين وينقل عليه كلام ابن حجر في "فتح الباري" بين المغرب والعشاء.

## المطلب الثاني: اجتماعيا.

يوجد بين المغرب والجزائر العديد من الروابط والصلات الاجتماعية التي صنعت انسجام تاريخي ورسخت الأخوة بين البلدين بعيدا عن الفواصل السياسية والجغرافية.

إن القطر المغاربي هو عبارة عن مزيج من الأجناس المتصاهرة والمندمجة فيما بينها منذ مدة طويلة، بسبب عوامل وأسباب تاريخية من بينها تعاقب الحضارات الغازية لهذه الأرض، مرورا بالوجود الروماني الذي ألحق شمال إفريقيا بالإمبراطورية، وحتى بعد انهيار الحضارة الرومانية وحل محلها الغزو الوندالي ثم البيزنطي، إلا أنه لم يؤثر كثيرا في التركيبة السكانية، إلا أن العنصر العربي الذي استوطنوا شمال إفريقيا من ليبيا شرقا حتى المحيط الأطلسي، ونظرا لطبيعة المعاملة السلمية بين المسلمين والأمازيغ بعد دخول الأمازيغ في الإسلام هذا أوجد مزيجا من المولدين.

وبهجرة قبائل العرب إلى المغرب بكثرة، استولوا على السهول وانتزعوها من الأمازيغ تدريجيا، إذ توسعت فروع قبائل العرب في المغرب الأوسط وصولا إلى المغرب الأقصى حتى غلبت لغة العرب على

1- الناصري، مرجع سابق، ص 23.

أهل المغرب وانصهر العرب بالبربر، فأصبح العرب يعرفون بالعرب المستعجمة، فعرب المغرب الأقصى والأوسط إنما أصلهم واحد، فأجدادهم من دخلوا إفريقيا إلى ثلاث قبائل، حكيم وهلال ومعقل[1].

وتنقسم حكيم إلى ثلاثة فروع كبرى: أثبج وسميث وسعيد، وتتفرع أثبج إلى ثلاث فروع صغرى: دلاج والمنتفق وصبيح.

أما بني هلال تتفرع إلى بني عامر ورباح وسفيان وهو زان ويتفرع بنو عامر إلى عروة وعقبة وهبرة ومسلم، وتتفرع رباح إلى دواودة وسويد وأسجع وحارث و النضر وكرفة.

وأما معقل فروعها ثلاثة: مختار وعثمان وحسان، تشتمل مختار على دوحة وسليم وعثمان وعلى حاسن وكنانة وحسان على ذوي حسان وذوي عبيد الله وذوو حسان على دليم والأوداية والبرابش والرحمانة وأحمد وتتفرع هذه القبائل إلى فروع كثيرة.

فقد استقر أثبج في دكالة وسهول تادلا وقبيلة دلاج في تخوم بجاية وصبيح في تخوم مملكة الجزائر وبنو عامر بتخوم تلمسان وعروة بضواحي مستغانم وعقبة بضواحي مليانة ومسلم بمفازة المسيلة، فأصل عرب المغرب واحد فانصهر العرب بالأمازيغ فأصبحوا أمة واحدة وغلبة لغتهم على السكان الأصليين[2].

كما تعتبر الهجرة من بين أبرز الروابط التي ساهمت في تمتين العلاقات بين البلدين وكان عامل غياب القيود السياسية والحدود من أبرز أسباب ظاهرة الهجرة، وكان القطرين المغربيين قطرا واحدا لا تميزه إلا نظم الحكم المختلفة، وكان أهل الجزائر وتجارها وعلمائها يقصدون المغرب لمزاولة أعمالهم وكأنهم في بلدهم الثاني وهو نفس الشعور لدى المغاربة.

1- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 46.
2- نفسه، ج1، ص 48 – 51.

هذا ما كان جليا في مجال طلب العلم عند العلماء، فقد سجلت لنا كتب التاريخ العديد من علماء الجزائر الذين كانوا يقدون المغرب لتلقي العلوم في جامع القرويين والتدريس به، كالعالم سيدي أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الله الواحد بن علي الونشريسي، الذي أخذ العلم من علماء تلمسان في بلده، لكنه ارتحل من المدينة بسبب خلاف وقع بينه وبين سلطان تلمسان، ففر إلى مدينة فاس واستوطن بها.

كما نجد أيضا العلامة عبد الله الوريا جلي الذي سافر إلى تلمسان لأخذ العلم عن الشيخ ابن مرزوق وأحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي الشهير بالزروق، الذي هاجر إلى المغرب في القرن 15م، كما نجد في كتب السير لابن عساكر والبشان لابن مريم، ذكر العديد من العلماء الذين هاجروا إلى الجزائر واستوطنوا بها قصد تحصيل العلم وكذلك الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب.

لكن ما لم تشر إليه المصادر عدد المهاجرين ولا تفاصيل كثيرة خارج إطار البحث العلمي واكتفت بالإشارة إلى المدن التي حلوا بها، ولعل أبرز المدن التي نزل بها هؤلاء بصفة ظرفية، نذكر مدينة فاس ومراكش وتطوان وسجلماسة وتادودانت في المغرب وتلمسان ومدينة الجزائر وقسنطينة في الجزائر، هذا الامر كفيل في خلق المزيد من الروابط والانسجام بين المغاربة والجزائريين.

كما أن علماء الجزائر في فاس، كانت لهم وجاهة ومكانة كفلت لهم الاحترام وتولي العديد من المناصب ومن ذلك توليت محمد الشيخ السعدي للتلمسانيين بعدما دخل فاس[1].سحبت لنا العديد من المؤلفات التاريخية العديد من المواقف الطيبة التي تدل على التعاطف والتضامن بين المغاربة والجزائريين

1- بن خروف، مرجع سابق، ص 365.

خاصة في رحلات القوافل إلى المشرق الإسلامي.أما عن الذين هاجروا من بلدهم الأصلي واستقروا سواء بالجزائر أو بالمغرب الأقصى ولو ظرفيا، فقد اندمجو في هذا النسيج الاجتماعي الجديد، ومن بين مظاهر الإنسجام والمصاهرات التي تحدث بين العامة من التجار والعلماء ونذكر في هذا الموضع، مصاهرة الطالب الجزائري أبي المهدي عيسى الثعالبي لأستاذه علي بن عبد الواحد السجلماسي المغربي، ثم رجع إلى الجزائر مع أسرته في النصف الأول من القرن 16م[1].

عند الحديث عن المصاهرة ذات الطابع السياسي بين فئة الحكام نجد عدة نماذج كزواج بعض الأمراء الوطاسيين والسعديين من بنات حكام الجزائر خاصة بعد لجوء الأمراء إلى الجزائر كالأمير الوطاسي أبي بكر بن السلطان أحمد الوطاسي الذي تزوج بعد لجوئه إلى الجزائر من ابنة صالح رايس بيلرباي الجزائر 1552 – 1556م، وقد حاو صالح رايس تنصيب صهره حاكما على فاس لكن الفاسيين رفضوا ذلك وارتضوا بالأمير أبو حسون، ونذكر عبد المؤمن بن محمد الشيخ السعدي الذي تزوج ابنة حسن بن خير الدين بيلرباي الجزائر، فولاه حسن بن خير الدين على تلمسان، فحكمها إلى أن أغتيل والهدف من هذه المصاهرات إنما كان لربط العلاقات وجعلها متينة، ولزرع الثقة بين حكام الجزائر والمغرب الأقصى[2].

من عادات المغرب والجزائر هي عادات الزواج بحيث تشترك وتجتمع في نفس الخصائص، بحيث إذا أراد الرجل الزواج يبلغ والده وبدوره يبلغ والد المخطوبة، فيجتمع جماعة في المسجد ويحضر معهم عدلان يكتبان العقد ويحددان شروط الصداق بحضور الخاطب والمخطوبة ويقدم الخاطب لخطيبته صداقا

1- الوزان، مصدر سابق، ص 70.

2- بن خروف، مرجع سابق، ص 364.

ثلاثين مثقالا نقدا وجارية سوداء قيمتها خمسة عشر مثقالا وقماش من الحرير والكتان ذات الألوان المتنوعة ويقدم لها زوج أحذية مطرزا وزوجين من القبقاب المطرزة وحلي من الفضة والأمشاط والعطور والمراوح ويعقد القران بالرضا[1].

أما عادات الطعام، فمن عادات المغرب والجزائر المشتركة، أنهم يأكلون اللحوم الطرية مرتين في الأسبوع ويتناولون ثلاث وجبات في اليوم، وجبة خفيفة صباحا من الخبز وحساء من دقيق القمح وعلى الظهر أكل خفيف كالخبز والجبن والزيتون وفي المساء تكون الوجبة خفيفة من الفواكه، أما في فصل الشتاء فيأكلون الكسكس المطبوخ على الماء المغلي، فتوضع قدر من الماء وتوضع فوقها قدر ذات ثقوب تسمح بتسرب البخار إلى الكسكس ثم بعد نضجه يدهن بالسمن ويسقى بالمرق، ومن العادات أيضا تناول الطعام على الأرض فوق الموائد المنخفضة، ويستعملون أيديهم في ذلك، وقد يجتمع عدد على صحن واحد[2].

## المطلب الثالث: دينيا.

إن التصوف الإسلامي الذي نشأ منذ القرن الثاني هجري، كان في بدايته مقصورا على حياة الزهد القائمة على الإعتزال والتأمل، وبقي إلى بداية القرن الثاني عشر حيث ظهر ما يسمى بنظام الطريقة عند هؤلاء المتصوفين المسلمين، واتسع نطاق التصوف وظهر عدد من العلماء البارزين أمثال

1- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 254.
2- نفسه، ص 252.

الشيخ عبد القادر الجيلالي والشيخ أبو حامد الغزالي، وازداد هذا كله خاصة في القرن السادس عشر ميلادي كرد فعل للاستعمار الأوروبي.

ترتكز الحركة الإيمانية في الجزائر والمغرب في القرن 16م، على حركة التصوف التي نشرتها الطرق الصوفية ونذكر أهم الطرق الصوفية التي ظهرت في الجزائر والمغرب ونركز على أهمها.

## 1- في الجزائر القرن 16م:

الجنيدية نسبة للجند / السهروردية نسبة لأبي نجيب السهروردي ومعناها أخذ صلحاء وعلماء الطرق الأخرى / القادرية نسبة لعبد القادر الجيلالي من كبار الزهاد والمتصوفين تتسم بالإصلاح والإرشاد والتسامح ونشر المعرفة والعلم، وهي من الطرق التي واصلت انتشارها في القرن 16م بالجزائر بالجنوب الغربي، وكان لها ممثلون من المرابطين في كل مدينة الجزائر وقسنطينة وبجاية / الشاذلية يرجع تأسيس هذه الطريقة إلى أبي القاسم الجندي الذي تأثر به الشيخ شعيب أبو مدين الأندلسي الفقيه الشهير وأتباع الشاذلية بالجزائر لا ينكرون التمتع بالحياة[1] / الشابية نسبة إلى أحمد بن مخلوف الشابي 1492م بتونس، فكان نفوذها خلال العقود السنة الأولى من القرن 16م، منتشرا في الشرق الجزائري حيث دخل تحت لوائها الحنانشة والتمامشة الذي بفضلهم سيطر عرفة على قسنطينة وتبسة والأوراس والزيبان وملكت الطريقة الواحات والقرى والعقارات، مما جعلها من أغنى الحركات الصوفية وهو ما أهلها لإقامة دولة وتكوين جيش نظامي بأحدث الأسلحة النارية / الصديقية نسبة لأبي الصديق وإن كانت غير معروفة

1- صباح بعارسية، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 16م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، 2005 – 2006، ص 82 – 83.

بالجزائر إلا أن لها نفوذ سياسي وديني في كامل الصحراء الجزائرية، أول مرابط منتمي للطريقة الصديقية رفعت له قبة بالجزائر وهو سيدي معمر بن سليمان 1420م / الزروقية وهي فرع من الشاذلية، جمعت في جوهرها بين الشاذلية والقادرية،والطريقة نسبة لأبي الفضل شهاب الدين أو العباس المعروف بأحمد زروق البرنوسي 1493م / الراشدية مؤسسها الشيخ السنوسي 1524م، وهي الفرع الجنوبي للشاذلية الراشدية / السوحالية 1530م نسبة لسي محمد عبد الرحمان السوحالي وهو من الشرفاء تلميذ أحمد بن يوسف الملياني / البكائية 1530م نسبة لعمر بن أحمد البكاي بتومبوكتو وهي ترتبط بالشاذلية بواسطة جلال الدين السيوطي[1].

## 2- في المغرب الأقصى القرن 16م:

الطريقة القادرية وهي تمثل التنظيم الديني للطرق الصوفية بالمغرب الكبير وهي أوسع الطرق انتشارا، حيث برزت وانتشرت كطريقة صوفية خلال القرن 16م.

**الشاذلية:** تعتبر من أهم الطرق الصوفية كونها تتفرع عنها تقريبا كل الطرق الصوفية الأخرى التي عملت في هذه المنطقة وغيرها من مناطق إفريقيا، وهي أيضا تمثل التنظيم الديني للطرق الصوفية بالمغرب الأقصى، انتشرت بشكل قوي في القرن 16م وسيطرت على الريف وسوس.

**الرازية:** وهي نوع من الشاذلية ظهرت نحو 1526م في وادي الدرع بالمغرب الأقصى، مؤسسها الشيخ الرازي بن أبي القاسم أو أبي الحسن القاسم الرازي، تلتقي هذه الطريقة بالناصرية والزيانية[2].

1- المدني، مرجع سابق، ص 378.

2- هلال عمار، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 1988، ص 106.

**الناصرية**: أسسها محمد بن ناصر الدرعي في تموغوت في منطقة وادي الدرع بالمغرب الأقصى، لتأخذ طريقها إلى كل من الجزائر وتونس أين انتشرت انتشارا واسعا، وهي فرع من الشاذلية.

**الغازية**: نسبة إلى أبي الحسن القاسم الغازي الذي أنشأ زاوية هاتن في وادي الدرع.

**الفاسية**: مركزها بفاس من كبار شيوخها عبد القادر الفاسي الذي يلح في التأدب مع الله وعدم الاشتغال بما عداه والاخلاص له والاقتداء بسيرة رسوله[1].

## 3- نشأة الزوايا في الجزائر والمغرب الأقصى:

إن الجزائر والمغرب الأقصى انتشرت فيها عدة طرق صوفية تفرعت عنها عدة طرق، وكان لكل طريقة من الطرق زواياها ومقاماتها وأتباعها والزوايا، والطريقة هي نظام روحي متعلق بها وتسمى أيضا الطائفة أو الفرقة، وكانت تلك الزوايا أماكن ليست فقط للعبادة وإنما للتعليم ومأوى لعابري السبيل[2]، وملجأ للفقراء والمحتاجين، وكان لها هيكل تنظيمي ونظام تتميز به، والزواياكان لها شأن عظيم في القرن 16م، فكان لها وجود اجتماعي، فالزاوية عرفت على أنها مكان للعبادة كالمسجد ويشتمل على مرافق للطلبة المجاورين لها وملجأ لعابري السبيل، كما قيل أنها عرفت بالمغرب بعد القرن 05هـ، وسميت في بادئ الأمر "دار الكرامة"، كالتي بنيت في مراكش ثم أطلق المرينيون على الزوايا التي بنوها في عهدهم اسم دار الضيوف لتعرف بعد ذلك في المغرب العربي بأنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية، يجتمع فيها مريدهم لذكر الأوراد كما كانت تتخذ مأوى لطلبة القرآن والعلم وبقية الزوار الذين يقصدونها للاستفتاء

1- هلال عمار، مرجع سابق، ص 107.

2- يحي بوعزيز، إعلام الفكر والثقافة بالجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيوت – لبنان، 1995، ص 42 – 43.

والصلح بين المتخاصمين، وكثر هذا النوع من الزوايا في القرن 16م، في عهد البيلربايات والسعديين، ويمكن القول أن الحياة السياسية في الجزائر والمغرب الأقصى كانت مهيأة لبروز دور القوى الدينية التي لعبت دورا كبيرا في بناء الدولة[1].

## 4- دورهم السياسي:

كان أحمد بن يوسف الملياني نموذجا للتحالف العثماني المرابطي في المنطقة، ويعد التحالف الملياني مع العثمانيين من بين الأسباب التي أدت إلى زيادة الاضطراب والفوضى لدى الزيانيين ولا شك أن قصة الملياني تقدم نموذجا واضحا على تداخل السياسة والتصوف في القرن 16م[2].

وتذكر الروايات أن عروج زار الملياني واتفق معه سرا على عدة أور منها، إعلان الملياني وأتباعه تأييدهم للعثمانيين، بينما تعهد عروج بعدم التعرض بالملياني ولنسله ولمن تعلق به، ولقد قدم خير الدين هدية للشيخ الملياني وظلت إمارة الحج في يد محمد بن مرزوق الابن الأكبر لسيدي أحمد بن يوسف وذريته، ولقد اتبع العثمانيون نفس الطريقة في تعاملهم مع الشيخ محمد بن المغوفل، وكان المغوفل من صلحاء الشلف في أوائل القرن 16م، حتى أعيت له مشيخة الشلف وأثناء إقامته للتعبد والزهد جاء من حدثه عن خطط العثمانيين في الاستيلاء على تلمسان، وطلبوا منه التوجه معهم إلى هناك فرفض ولكنه

1- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ص 348.

2- سعد الله، مرجع سابق، ص 471.

أرسل معهم وليده علامة على الرضا والتأييد، ولذلك يتبين لنا مكانة المرابطين في بداية العهد العثماني وعلى موقف العثمانيين من كبارهم[1].

أما في المغرب الأقصى أدت القوى الدينية دورا هاما في مقاومة الاحتلال، وذلك نظرا لعجز السلطات الحاكمة أنذاك في بداية القرن 16م في مواجهة الأحداث، فقام الأئمة والمشايخ يدعون الناس على بذل الغالي والنفيس للدفاع عن البلاد وإعلاء كلمة الإسلام، وكانوا يستنكرون ضعف الحكام وتخاذلهم ومهادنتهم أحيانا للعدو، وبذلك تفوق نفوذ الزوايا السياسي،وكان للزاوية الجزولية سيطرة روحية كبيرة بالجنوب المغربي، حيث لا ينافسها في ذلك غيرها من الزوايا[2].

## 5- دورها الاجتماعي والثقافي:

### الثقافي:

- كانت الحركة الصوفية مزدهرة في القرن 16م، في الجزائر والمغرب الأقصى، حيث برزت آثارها في سلوك المجتمع، كما أضحى توجها دينيا وتعبيرا ثقافيا يبلغ به رسالة الإسلام ويعالج مشاكل المجتمع في شتى مجالات الحياة الدينية والتعليمية والقضائية، واعتبر المغرب الأوسط الجزائر والمغرب الأقصى من الحواضر المغاربية الهامة في نشر العلم، وذلك لما تتوف ر عليه من مراكز تعليمية، والتي جعلوها أماكن للحوار وتبادل الآراء العلمية طيلة القرن 16م.

1- سعد الله، مرجع سابق ، ص 504.

2حركات، مرجع سابق، ص 47.

– يعتبر المسجد النواة الأولى كمؤسسة ثقافية وتعليمية ودينية في آن واحد، حيث كان المعهد الأول للتعليم، فكانت إلى جانب وظيفتها الدينية تقوم بوظيفة التعليم واستمرت على هذا عبر فترات مختلفة، وبالرغم من الانتشار الواسع للمدارس فإنها تعايشت معا لنشر الرسالة التعليمية والدينية.

– كما أن المساجد تتمثل وظيفتها في تحفيظ القرآن، وتعليم الفروض ومختلف العلوم الآخرى المتعلقة بالحياة والتعريف بشؤون الناس ومعالجة بعض المشاكل والقضايا التي تعترض حياة المجتمع والتحريض على الجهاد ضد العدو، كما أن نتائج المعارك كانت تقرأ على منابرها.

وكان المسجد هو ملتقى العباد ومجمع الأعيان وهو قلب القرية في الريف، وروح الحي في المدينة، فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدينة بدون مسجد، وهذه الظاهرة كانت بارزة في المجتمع الجزائري، فكانت مدينة الجزائر تحتوي على عدة مساجد كالجامع الكبير وجامع القصبة، أما المغرب فكان يحتوي على عدة مساجد أهمها جامع المواسين بمدينة مراكش 1526م، وجامع باب دكالة أحد الأحياء الرئيسية بمراكش[1].

– أما الزوايا فكان دورها يتمثل في إحياء الرباطات لتجمع بين العبادة والتعليم والجهاد، وهكذا صارت الزوايا تعادل مراكز العمل السياسي والأندية الثقافية الحديثة، وكانت تمارس أنشطة سياسية ودينية وتثقيفية منذ القرن 16م.

1– سعد الله، مرجع سابق، ص 504 – 506.

وكانت الزوايا لها خصوصية التعليم وكانت بمثابة معاهد لتعليم الشبان وتنوير العامة، سواء داخل المدينة أو في الريف، فالزاوية تشتمل مسجدا وقبة الشيخ المرابط ومبيتا للطلبة الداخلين ومساكن للغرباء والفقراء.

**– زوايا الجزائر:**

قسنطينة وتحتوي على زاوية عبد المؤمن وزاوية التلمساني وفي تلمسان زاوية سيدي بومدين وزاوية محمد السنوسي.

**– زوايا المغرب:**

زاوية الشيخ عبد الوارث ببني زروال والزاوية الناصرية بثمكروت أسسها الشيخ عمر بن أحمد الأنصاري 1575م.

– أما المكتبات فكان النشاط الثقافي لأي بلد مرتبط بكثرة الكتب والمكتبات فيه، وكانت الكتب في الجزائر تنتج محليا عن طريق التأليف، وكانت تجلب من الخارج ولا سيما من الأندلس ومصر واسطنبول والحجاز.

– وكانت تلمسان عاصمة علمية مزدهرة بلغت فيها صناعة الكتاب تأليفا ونسخا، وكانت بجاية وقسنطينة ووهران مثلها[1].

وشهد المغرب الأقصى نفس التطور في الاعتناء بالمكتبات، حيث اتسمت فترة القرن 16م، بتنافس الأسر والخواص في اقتناء الخزائن وجمع الكتب، وذلك حبا في وضعها تحت تصرف الدارسين

1– سعد الله، مرجع سابق، ص 286.

والباحثين، وكانت من أعظم خزانات المغرب في عهد الدولة السعدية هي خزانة القرويين التي احتفظت بمؤلفات ترجع إلى القرون الماضية[1].

**دورها الاجتماعي:**

- إن الظواهر الاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمع القرن 16م، في الجزائر والمغرب الأقصى، اختفت اليوم ولم يبقى لها وجود، ومنها مازالت موجودة إلى اليوم؛

**انتقاد ظاهرة شرب الخمر:** إن العلماء لم يقفوا متفرجين من تردي الأوضاع الاجتماعية وانتشار الآفات المختلفة، بل انتقدوها وحاولوا إصلاح ما يمكن إصلاحه، ومنها ظاهرة شرب الخمر، وتلاشت هذه الظاهرة في الجزائر والمغرب ولم تبقى منتشرة على نطاق واسع والسبب يعود إلى ما قام به الدعة المصلحون من أمثال شيوخ الطرق الصوفية.

**الولائم والحفلات:**إن حفلات القرن 16م، كانت تسودها أنواع من الانحرافات، فكان ذلك يحتاج إلى تقويم وتهذيب وإلى وجوب قيام حملة ضد هذه الانحرافات وفي الجزائر أشار العلماء إلى هذه الانحرافات في المناسبات كالأعراس، كما طلب الشيخ العقباني إلى المطالبة بمعاقبة هؤلاء حتى يتم القضاء على الآفات الاجتماعية، كما أن المغرب الأقصى شهد حملة عنيفة من طرف الفقهاء ضد الانحرافات.

**إصلاح ذات البين:**إن الزوايا لها دور كبير في توعية السكان وتوجيههم في الجانبين الروحي والثقافي، وذلك ما قامت به في مساهمتها في تعميق ونشر الدين الإسلامي والتعليم وخاصة بالريف وإصلاح ذات

1- حركات، مرجع سابق، ص 381.

البين، ونذكر أهم شيوخ الاصلاح وهو يوسف المليانى 1527م، الذي كان يحث على التصالح بين القبائل المتحاربة.

**محاربة البدع والخرافات:** قام الونشريسي في المغرب وعبد الرحمان الأخضري بمحاربة البدع والخرافات، وكانوا يحثون الناس على اتباع الرسول صل الله عليه وسلم، وتجنب الظلالات والبدع.

**تعاونهم في حل المسائل الفقهية:** كان علماء المغرب والجزائر يشكلون مدرسة واحدة يتبادلون فيما بينهم، وذلك بإجراء مناظرات ومحاورات علمية تناولت الفقه والتغيير والتصوف[1].

1- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519 – 1830م، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2005 – 2006، ص 328.

## الخاتمة:

هذا البحث حول العلاقات الجزائرية المغربية، يمكننا أن نستنتج منها عدة نتائج مهمة.

- مع بداية القرن 16م، كان الوضع السياسي متدهورا، كانت هناك أطراف سياسية في معظم الأحوال مستفيدة من هذا الوضع، والتي كانت بصلة مع القوى الخارجية، وهذا ما جعل أراضي المغرب والجزائر محل أطماع من الإسبان والبرتغال، مما ولد ردة فعل تمثلت في السعديين في المغرب والعثمانيين في الجزائر؛

- لقد تأثر الجانب الاجتماعي الاقتصادي والثقافي بالجانب السياسي، فكان ذلك سببا في بروز الآفات الاجتماعية وانخفاض التقدم الفكري بسبب التوترات والحروب، مما جعل المثقفين مهتمين بالوضع السائد؛

- من حيث العلاقات السياسية كان يغلب عليها الصدامات بسبب المصالح المتبادلة كالتوسعات ونية العثمانيين لكسب ولاء المغرب وضمها لهم؛

- أما الجانب الاقتصادي فلم يتأثر كثيرا بالظروف السياسية بسبب الحرية في المعاملات التجارية وحرية التنقل عبر الطرق بدون قيود سياسية؛

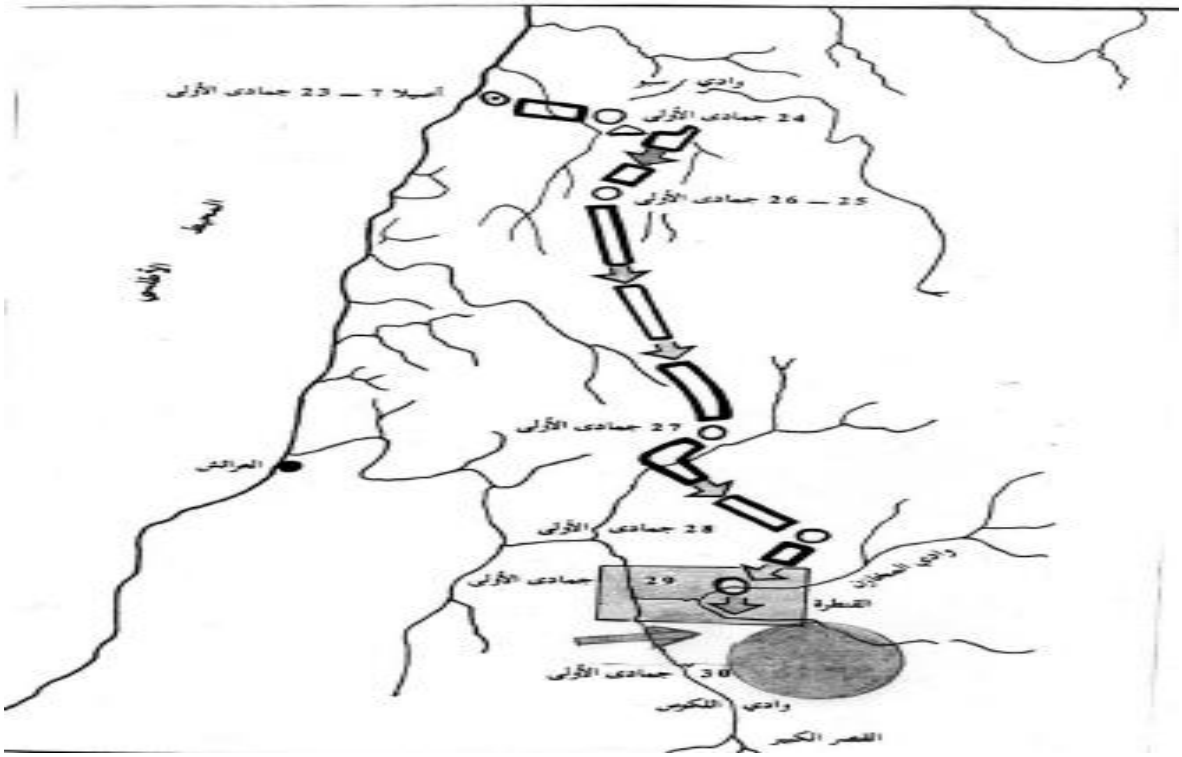
- كان هناك ترابط في الأصول العرقية والتاريخ المشترك والجوار، مما خلق التعاون والإخاء؛

- رغم وجود اهتمام كبير بالعلوم بأنواعها وتشجيع الحكام للمؤسسات العلمية، إلا أن الجانب الفكري ضل يعتمد على التقليد؛

- أما الطرق الصوفية كانت متشابهة وموحدة إلى أبعد الحدود في العمل ودورها وتدخلاتها السياسية.

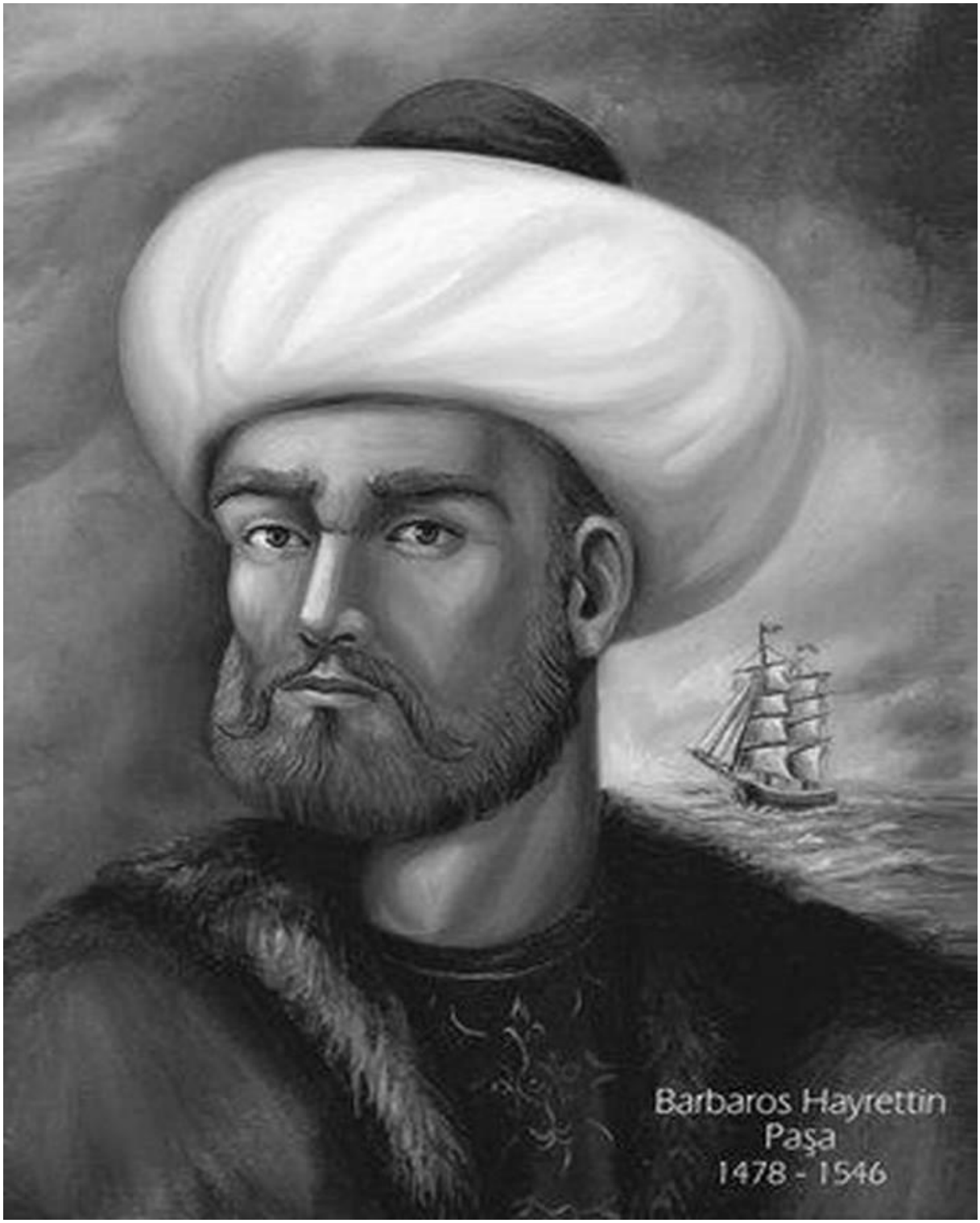
## قائمة الملاحق:

*** الملحق رقم (01): معركة وادي المخازن**




**المصدر: كتاب الوزان**

* الملحق رقم (02): خير الدين بربروس




المصدر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا

## * الملحق رقم (03): رسالة استنجاد أهالي الجزائر بالدولة العثمانية

بعد الدعاء لمقام السلطان العالي بالنصر والسعادة والهداية إلى العمل الصالح أكتب إليكم عن الأحداث الواقعة في مدينة الجزائر.

إن مقامكم العظيم له من الحظوة القصوى والإحترام الرفيع عندنا خصوصا بعدما ذاع صيتكم وذُكرت أيّامكم ، ونحن نشعر بالفخر والإعتزاز معلنين ولاءنا لكم انطلاقا من ثقتنا العالية بكم وهذا هو شعورنا سواء كان ظاهرا أم باطنا، وننتظر أوامركم السامية لنا، وكونوا مطمئنين أننا لا نشعر تجاهكم إلا بالتوقير والتعظيم، ومتمنين لمقامكم الشريف العزة والسّؤدد، وموقفنا هذا نابع من عاداتنا وتقاليدنا في تبجيل كافة المؤمنين من أولياء الله المؤيّدين بنصره والمظفرين في إلحاق الهزيمة بالكفار كما وردت لنا الأنباء بذلك ، ونفصل إليكم الوضع على النحو التالي:

بعد أن استولت الطائفة الطاغية على الأندلس انتقل شرّها إلى قلعة وهران ومن ثم خططت للإستيلاء على سائر البلاد وحصلت على موطئ قدم في بجاية وطرابلس أما مدينتنا الجزائر فقد بقيت بعيدة عن دينهم ولكنها أصبحت كالغريب وسط هؤلاء، وضيق علينا أهل الكفر من كل جانب وما كان منّا إلا أن استنفرنا كافة جهودنا ولجأنا إلى الله الناصر المعين، ولكنّنا قمنا بدراسة الموقف من عدة وجوه خصوصا بعد أن طلبت الطائفة الطاغية منا أن ندخل تحت ذمّتها، وقد اضطررنا أن نقبل الصلح مع الكفار بعد اشتداد وطأة المحنة علينا وخوفنا على أنفسنا وعلى حريمنا وأولادنا من السبي وأموالنا من السلب ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

بعد هذه الضائقة جاء الكفار واستولوا على وهران وبجاية وطرابلس، ومن ثمّ قصدوا إلينا بسفنهم للاستيلاء على مدينتنا وايقاعنا في حبائل أسرهم وتفريق شملنا، إلا أن قدوم أوروج بك مع نفر من المجاهدين في سبيل الله وحماة أهل الدين والمسلمين غيّر الأمر، وقد فرحنا بقدومه واستقبلناه بكل إكرام خصوصا أن هذا المدد قد حررنا من عقدة الخوف بفضل الله تعالى ، وكان المشار إليه أوروج بك قد قدم على باجة إحدى المدن التونسية قبل قدومه إلينا ، وقصده من ذلك تحريرها من دنس الكفار ودعم إخواننا المسلمين فيها، وقام بمحاصرة قلعتها بمعاونة المجاهد الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضي، وقاما بتوجيه ضربات ساحقة للكفار عن طريق هدم القلعة وبثّ الخوف في صفوف الأعداء، وهكذا استطاعا الدخول إلى القلعة على مرأى من الكفّار، وكانت هناك مجموعة من المجاهدين استطاعت أن تسيطر على أحد أبراج القلعة وهكذا دخلوها عنوة، وقد فرّ بعض الكفار والبعض الآخر قتل في انتظار نار جهنم التي أعدها الله للكفار. وقد قاتل المجاهدون ضد الكفار قتالا عظيما وأبدوا مشاهد مثيرة من البسالة والإقدام ليلا ونهارا من شروق الشمس حتى غروبها .

وقد قدم إلينا المشار إليه أوروج بك في قلة من أصحابه ليكونوا عونا لنا في قتالنا ضد أعداء الدّين وهذا هو السبب بالذات الذي حررنا من عقدة الخوف من الأعداء .

وقد نال المشار إليه أوروج بك مرتبة الشهادة في معركة تلمسان وحل محله في قيادة المجاهدين شقيقه أبو التّقى خير الدين،وكان خير خلف لأننا لم نعهده إلاّ متبعا للشرع الشريف وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولم يثبت عليه إلا التّعظيم لمقامكم ودأبه على الجهاد لإعلاء كلمة الله،وبذلك نال محبة الجميع واحترامهم ، وكيف لا ينالها وهو أتى بقلب سليم ونية صادقة للجهاد في سبيل الله . مقدما عليه بكل بسالة وإقدام، مضحيا براحته منفذا لأمر الله تعالى بالجهاد ومنطلقا من عقيدة إيمانية كأنها كوكب وهاج.

وأود أن أعلمكم أن خير الدين قد نوى زيارتكم إلا أن أعيان البلدة المذكورة قد رجوه بالتخلي عن فكرة الزيارة حاليا لعدم زوال خطر النصارى الكفار، وبدلا منه اتفقنا على ارسال العالم الفقيه سيد أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد وأرسلناه إلى حضرتكم فعلا، ويحمل منا رسالة ولاء لمقامكم الرفيع، واعلم يا سيدي أن اقليم بجاية وأهالي الشرق والغرب في خدمتكم ، وأن ما حدث في هذه الديار قد تم شرحه لكم في هذه الرسالة.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

*** الملحق رقم (04): مدن وأقاليم المغرب**




**المصدر: كتاب الوزان**

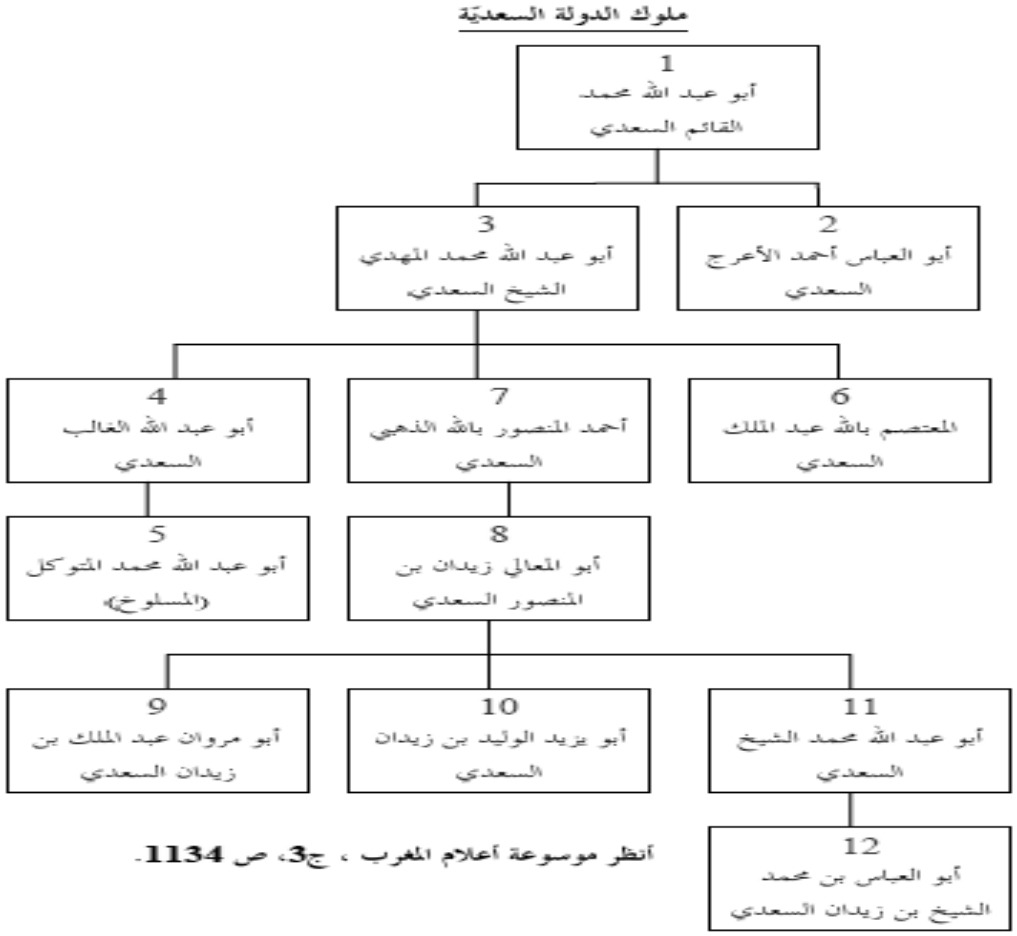
* الملحق رقم (05): الجيش الانكشاري






المصدر: موقع ترك برس

## * الملحق رقم (06): شجرة ملوك الدولة السعدية




**أنظر موسوعة أعلام المغرب ، ج3، ص 1134.**



**المصدر: كتاب الوزان**

## قائمة المصادروالمراجع:

## قائمةالمصادر:

**01- الأفراني** (محمد الصغير)، نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحدى، تح هوداس، دط، مطبعة بردين، أنجي، 1888.

**02- التطواني** (أبي عبد الله محمد الكراسي)، عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الوسائل، (د تح ط).

**03- التمكروتي** (علي بن محمد)، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2000.

**04- الجزائري** (محمد عبد القادر)، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج1 +2، ط2، دار الحضارة للطباعة والتوزيع، 2007.

**05- الشفشاوني** (محمد بن عسكر الحسني)، دوحة الناشر لمحاسن من مشايخ القرن العاشر، تح محمد حجي، ط2، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط – المغرب، 1997.

**06- المشرقي** (محمد بن محمد بن مصطفى)، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، تح إدريس بوهليلة، ط1، دار أبي الرقاق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، 2005.

**07- بربروس** (خير الدين)، ترجمة محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، 2016.

**12- كربخال** (مرمول)، إفريقيا، تر محمد حجي وآخرون،ج2،دط،مكتبةا لمعارف،الرباط – المغرب، 1984.

**- التلمساني**(أحمد المقري)،نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب،تح إحس انعباس،ج1،م1،دط،دار صار،بيروت – لبنان، 1968م.

## قائمةالمراجع:

**01- التازي**(عبد الهادي)،التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصورإلى اليوم،ج7،دط،أكاديمية المملكة المغربية،المغرب، 1988.

**02- ألتر**(سامح عزيز)،الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا،ط1،دار النهضةالعربية،بيروت، 1989م.

**03- التلمساني**(ابن رقبة)،الزهرة النائرة فيماجرى في الجزائر حين أغارت عليهاجنودالفكرة،مخطوط بالمكتبةالوطنيةا لجزائرية،رقم 2603.

**04- التميمي**(عبدالجليل)،دراسات في التاريخ العثماني خلال القرن 16م،منشور اتمؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات،تونس، 2009.

**05- الجيلالي** (عبدالرحمان)،تاريخ الجزائر العام،ج2،ط8،دار الأمة للطباعة و النشر والتوزيع، 2008.

**06- الزبيري**(محمد العربي)،التجارة الخارجيةللشرق الجزائري،دط،الشركةالوطنيةللنشر و التوزيع،الجزائر، 1972.

**07- الزبيري**(محمدالعربي)، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث،المؤسسةالوطنية للطباعة و النشر.

**08- الزياني**(محمد بن يوسف)،دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران،تح المهدي البو عبدلي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر.

**09- العسلي**(بسام)،خيرالدين بربروس اوالجهاد البحري (1470 – 1547م)،ط1،دار النفاس، بيروت – لبنان، 1980.

**10- الفلالي**(عبد الكريم)،التاريخ السياسي للمغرب الكبير،ط1،ش ن ط،القاهرة، ج4، 2006.

**11- المدني**(أحمد توفيق)،حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492 – 1792،ط2 منقحة، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1976.

**12- المشتالي**(أبو فارس عبد العزيز بن محمد)،مناهج الصفا في أخبار الملوك والرشرفا، تح عبد الله كنون،ج2،م المهية، تطوان، 1964.

**13- المطوي**(محمدالعروسي)،السلطةالحفصيةتاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي،دار الغرب الإسلامي،بيروت، 1980.

**14- الناصري**(أبوالعباس الحمد بن خالد)،الاستقصاء(الأخبار لدول المغرب الأقصى)، ج4،دارالكتاب،الدار البيضاء – المغرب، 1997.

**15- الوزان**(الحسن بن محمد)،وصف إفريقيا،ترجمة محمد حجي محمدالأخضر،ج2، ط2،دار الغرب الإسلامي،بيروت، 1983.

**16- اليمبكتي**(أحمد بابا)،نيل الابتهاج بتطريز الديباج،تق عبد الحميد عبد الله الهررمة،ج1 - 2،ط1،منشورات كلية الدعوة الإسلامية،طرابلس – ليبيا، 1989م.

**17- بن القاضي**(أحمد)،لقط الفرائد من لفاظة حفق الفوائد،تح محمد حجي،بيروت، 1996.

**18- بن خروف**(عمار)،العلاقات بين المغرب والجزائر،رسالة لنيل شهادةالماجستير في التاريخ،تخصص تاريخ،كلية الأداب،قسم التاريخ،جامعةدمشق، 1983.

**19- بن عمار**(أحمد)،نحلة اللبيب أخبارالرحلة إلى الحبيب،مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية برقم 2757.

**20- بوعزيز**(يحي)،إعلام الفكر والثقافة بالجزائر المحروسة،ج1،دارالغرب الإسلامي،بيوت – لبنان، 1995.

**21- حركات**(إبراهيم)،المغرب عبر التاريخ،ج1،دارالكتاب العربي، الجزائر، 2007،ص 348.

**22- حماش**(خليفة)،العلاقة بين الجزائروالباب العالي،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث،كلية الأدب،مصر، 1988.

**23- درياس**(يامنة)،السكة الجزائرية في العهد العثماني،ط1،دارالحضارة للطباعة و التوزيع، 2007.

**24- رزوق**(محمد)،الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 – 17م، ط3، إفريقيا الشرق، الرباط – المغرب، 1998.

**25- سعد الله**(أبو القاسم)،تاريخ الجزائر الثقافي 1500 – 1830،ج2،ط1،دارالغرب الإسلامي، بيروت – لبنان.

**26- سعيدون**(ناصر الدين)،دراسات أندلسية،مظاهر التأثير الإيبيري و الوجود الأندلسي بالجزائر،ط1،دارالغرب الإسلامي،بيروت – لبنان، 2003.

**27- عنان**(محمد عبد الله)،سقوط الأندلس وآخر مسلميها،مجلة الأصالة، العدد 27،مطبعة البعث، قسنطينة، 1975.

**28- فارس**(محمد)،تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي،ط1،دار العصر الحديث للنشر،بيروت، لبنان، 1992.

**29- لوتورنو**(روجيه)،فاس في عهد بني مرين،تر نقولا زيادة، دط،مؤسسة فرنكلين للطباعة و النسر،بيروت – لبنان، 1967م.

**30- محمود**(على عامر)،محمد حيز فارس،تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورت جامعة دمشق، سوريا، 1999 – 2000م.

**31- مؤنس**(حسين)،تاريخ المغرب العربي وحضارته،المجلد2،ط1،العصرالحديث للنشر و التوزيع،بيروت،لبنان، 1992.

**32- نويهض**(عادل)،معجم أعلام الجزائر من مصدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت – لبنان، 1980.

**33- هلال** (عمار)، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 1988.

**34- دراج** (محمد)، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس، 1512 – 1543م، الجزائر، ط1.

**35- سبسر** (ويليام)، الجزائر في عهد رياس البحر، تر عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، د ط، الجزائر العاصمة، 2006.

## قائمة المذكرات:

**01- بعارسية** (صباح)، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 16م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، 2005 – 2006.

**02- شقدان** (سام كمال عبد الرزاق)، تلمسان في العهد الزياني (633 – 962هـ/1235 – 1555م)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ، جامعة النجاح الوطني، نابلس – فلسطين، 2002.

**03- شويتام** (أرزقي)، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519 – 1830م، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2005 – 2006.

**04- غطاس** (عائشة)، الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر 1700 – 1830م، (مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه)، جامعة الجزائر،كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر، 2000 – 2001.

## قائمةالمقالات:

**01- بن عبود** (أمحمد) ،الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب الأقصى خلال القرنين 16 و17م، المجلة التاريخية المغاربية، العدد (55 - 56)، تونس، 1989.

**02- سعيداني** (محفوظ)، الفلاحة في بلاد المغرب في القرنين 18 – 19م، مجلة الدراسات الإفريقية، جامعة الجزائر 2، العدد 15 – 16، 2012 – 2013م.

الفهرس

الشكر: ..... 2

الإهداء:..... 3

الإهداء:..... 4

قائمة الإختصارات الواردة: ..... 5

مقدمة: ..... 1

فصل تمهيدي: ..... 5

المبحث الأول: أوضاع الجزائر والمغرب مع مطلع القرن 16م

المطلب الأول: الوضع السياسي في الجزائر ومراكش.....22

1– الظروف السياسية في الجزائر مطلع القرن السادس عشر ميلادي: .....23

2– إستنجاد الجزائر بالدولة العثمانية.....26

3– الصراع السياسي في المغرب.....31

المطلب الثاني: الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. .....37

1– الوضع الإقتصادي. .....38

2– الوضع الإجتماعي:.....44

3– الوضع الثقافي: .....47

المبحث الثاني: علاقات الجزائر والمغرب سياسيا واقتصاديا في عهد البيلربايات

المطلبالأول: العلاقات السياسية.....55

1- العلاقات الوطاسية في عهد البيلربايات: ..... 55

2- علاقات الجزائر مع السعديين: ..... 60

المطلب الثاني: العلاقات الاقتصادية: ..... 67

1- تجاريا: ..... 67

2- صناعيا: ..... 72

المبحث الثالث: مظاهر العلاقات الثقافية والاجتماعية والدينية

المطلب الأول: التقارب الفكري بين علماء المغرب والجزائر. ..... 75

1- الحواضرالعلمية: ..... 75

2- الإجازات العلمية..... 83

المطلب الثاني: اجتماعيا..... 86

المطلب الثالث: دينيا..... 90

1- في الجزائر القرن 16م: ..... 91

2- في المغرب الأقصى القرن 16م: ..... 92

3- نشأة الزوايا في الجزائر والمغرب الأقصى: ..... 93

4- دورهم السياسي:..... 94

5- دورها الاجتماعي والثقافي: ..... 95

الخاتمة: ..... 100

قائمة الملاحق: ..... 101

قائمةالمصادروالمراجع: ..... 107

الفهرس..... 110